غلاف أمامي

رواية

علي الغرناطي

نشوان زيد علي عنتر

٢٠٢٢م

جميع الحقوق محفوظة ©

المؤلف: نشوان زيد علي عنتر.

اسم الكتاب: علي الغرناطي.

نوع الكتاب: رواية.

الناشر: نقش للنشر

https://www.facebook.com/naqsh.pub

إيميل: naqsh.pub1@gmail.com

تصميم الغلاف: نقش للنشر.

مراجعة وتنقيح: د. حمزة عبد الله الضياني

الطبعة: الأولى ٢٠٢٢م

رقم الإيداع بدار الكتب الوطنية بصنعاء: /٢٠٢٢م

لا يسمح بنشر أجزاء هذا الكتاب بأي شكل من أشكال النشر الإلكتروني، ولا يجوز اقتصاص أي جزء منه بهدف إهدار حقوق الملكية الفكرية، أو إعادة إنتاجه بشكل مادي أو معنوي إلا بموافقة المؤلف.

للتواصل مع المؤلف:

إيميل: nashwan.zaid@gmail.com

إخلاء مسؤولية:

الآراء المنشورة بأسماء كاتبيها لا تعبّر بالضرورة عن رأي نقش للنشر، ولا تتحمل أي مسؤولية مترتبة على محتوى ما يتم نشره.

الإهــــداء

إلى بلد المليون ونصف المليون شهيد..

الجزائر الحبيبة..

تقديــم

بسم الله الرحمن الرحيم

أسعدني لما أهداني الأستاذ نشوان ابن صديق العمر وزميل الشباب الأستاذ زيد بن علي عنتر كتابه القيّم (العلاقات التجارية بين اليمن والحبشة في القرن السادس الميلادي(٥٢٥-٥٧٥م)) الصادر بداية عام ٢٠٢٢م الموافق ١٤٤٣هـ، وهي رسالته لنيل الماجستير عام ٢٠١٤م، ذلك الكتاب الذي قدم صورة علمية تاريخية عن علاقة اليمن بالحبشة والذي بذل فيه جهدًا علميًا لا يُستهان به، وغاص في أمهات الكتب والبحوث والدراسات المعنية بالموضوع الاقتصادي إبان فترة الاحتلال الحبشي الثاني لليمن في القرن السادس الميلادي والظروف الدولية المحيطة بها وتأثيره في مجريات الصراع اليمني-الحبشي عامةً والنزاع الحميري-الأكسومي خاصة.

ولم تمض فترة عن إصداره لذلك الكتاب حتى جاءني بمشروعه الروائي الموسوم (علي الغرناطي). شدّتني فصولها الأدبية التسعة التي قدمت بأحرفها صورًا مؤثرةً استوحاها من ذكريات والده أثناء دراسته في الجزائر، فكيف لو أنه كان طالبًا هناك؟!

وجدتُ نفسي منسجمًا معها، من صفحتها الأولى إلى الأخيرة؛ إذ قدمت الرواية بأسلوب وبرمزية فائقة عن الجزائر في عهد الاستعمار الفرنسي والمقاومة الوطنية، والتي كان فيها من يدّعي الوطنية وبغطاء ديني بينما له صلاته الاستخبارية بالاستعمار أو على الأقل له مصالحه معهم، كما هو الحال في كل الشعوب، وعن الجانب الاجتماعي الذي تمثل في بطل الملاكمة علي الغرناطي وأخيه بشير، وكلاهما تبناهما شيخ الطريقة التيجانية عبدالعزيز بناني، ونشأتهما في كنف العائلة التي تسكن في حي باب الواد بتلك الظروف ليجد نفسه ملاكمًا موهوبًا شهيرًا حاز على العديد من الجوائز، وفجأةً وهو في غمرة عطائه الرياضي يعتزل الملاكمة وينعزل بملء إرادته عن الناس دون أن يمنى بهزيمة منكرة داخل الحلبة، فسعت صحيفة اللوسوار لإجراء حوار صحفي معه، وأن يكون لها سبق النشر عنه وعن أسباب ابتعاده عن الملاكمة؛ ولا سيما مع صعوبة الوصول إليه وقبوله للحوار، وهنا ظهر دور انتهازية الصحافة والصحفيين والقائمين عليها وكيف توظف مهمتها توظيفًا غير وطنيٍّ بغطاءٍ مهنيٍّ وهو ما تطرقت إليه هذه الرواية من خلال الصحفية المتدربة عبلة الوغليسي التي تحملت مشقة المهمة بصبر وجلد لتقدم شخصية علي

الغرناطي وتبرز عبر لقائها الصحفي معه عدة جوانب إنسانية واجتماعية ومهنية ووطنية عنه.

لا أريد أن أتوغل في السرد عن شخوصها أو عن أبعاد الرواية حتى لا يفقد المطّلع متعة متابعته لفصول الرواية وبما اختتمها به الكاتب الأستاذ نشوان زيد علي عنتر.

أبارك له باكورة إنتاجه الأدبي هذا بعد إنجازه التاريخي الذي أسلفت ذكره هنا وبما يتمتع به من قدرات ثقافية وتمكنه من لغته ونبل الغايات والأهداف المرجوة من جهده بذكاء وموهبة.

أ/ يحيى حسين العرشي

عضو مجلس الشورى

وزير الثقافة والإعلام الأسبق

مارس ٢٠٢٢م

الفصل الأول:
المقابلة

(أنتِ الصحفية الجديدة، أليس كذلك؟! تفضلي بالجلوس)

هكذا أخبرتها سكرتيرة رئيس التحرير مجلة (لوسوار) [1] اليومية وقد علت الدهشة والاستغراب وجهها وهي ترى الصحفية الجديدة مرتبكة ومرتجفة من شدة التوتر لدرجة أنها أومأت برأسها ردًا عليها دون أن تنطق بكلمةٍ واحدة، وهذا الوضع طبيعيّ للوهلة الأولى، فهي الصحفية الجديدة كما ذكرنا آنفًا، فالصحفية (عبلة الوغليسي) بعد تخرّجها للتوّ من كلية الصحافة والإعلام بجامعة الجزائر وبتقدير جيد ستبدأ خطواتها التطبيقية لتقتحم ميدان العمل والحياة اليومية في مجال تخصصها؛ ولاسيما أنها حصلت على موعدٍ مِن رئيس تحرير اللوسوار أ/ عمر الصباغ حول إعلان وظيفة مطلوب فيها مُراسِلة للقسم الرياضي في المجلة، فبالرغم من أنها ليست ضمن اختصاصها -فهي خريجة قسم صحافة فنية- إلا أنها سرعان ما وافقت بكل جوارحها؛ علّ الوظيفة تحسن وضعها المعيشي بعد رحيل والدها عن الحياة ثم فقدان شقيقها الأكبر لوظيفته كمهندس

---

[1] لوسوار (le soir) تعني المساء باللغة الفرنسية.

في مصنع الآلات في الحراش بعد خصخصته وأصبح عاطلًا لا يجد من يعيله هو ووالدته وشقيقته، لكن كلّ هذا ليس له علاقة بحالة التوتر التي تجيش بصدرها دون توقف؛ لأن المشكلة هي في رئيس التحرير ذاته، الأستاذ عمر الصباغ المشهور بتصرفاته الغربية الأطوار وشروطه التعجيزية للتوظيف، وقد لاحظت عبلة ذلك في عيون الموظفين وهمساتهم عند دخولها المجلة؛ حتى السكرتيرة من بينهم، فالأستاذ عمر صحفيٌّ مخضرم ومعروف بصولاته وجولاته المثيرة للجدل في حقل الصحافة المحلية باللغتين العربية والفرنسية، واستطاع أن ينشئ مجلة (اللوسوار) من الصفر بعد أن كانت مجرّد ملحق صغير في مجلة الوطن (la nation) ومكتوب بالفرنسية، وكان صاحبها مجرّد محرر فني فيها، لكن مع مرور الأيام غدت اللوسوار (le soir) واحدة من أهم الصحف اليومية الناطقة باللغة الفرنسية في الجزائر قاطبةً، ويصبح هو رئيس تحريرها ومالكها، ويفوز بجائزة الدولة الوطنية للصحافة في ١٩٨٨م، ويتوّج كلّ هذا المجهود وبشكل سريع بأن اختير الأستاذ عمر نقيبًا للصحفيين الجزائريين، لكن هذا ليس سببًا في تهيبها منه، فهو -إلى

جانب شهرته كصحفي مرموق- يوصف بأنه غريب أطوار في حياته اليومية والعملية وتحديدًا فيما يتعلق بشروطه ذات الطابع القراقوشي[٢] في توظيف العاملين في صحيفته كفرضه على أحدهم العمل من أقسام صحيفته يختاره هو بنفسه حتى ولو كان خارج تخصص الصحفي الطالب للوظيفة، واختياره شخص ما من أصدقائه سواء المشهورين أو المغمورين (وغالبيتهم من الطرف الثاني) لإجراء مقابلة معه، وأن يكون عمر المتقدم على الأقل ٣٢ سنة كعمر رئيس التحرير بعد أن أصبح نقيبًا للصحفيين، وخصم مرتبه الشهري بأكمله إذا ارتكب خطأً ولو صغيرًا ...إلخ، شروط غريبة وشخصية عجيبة جعلتها تموج بعاصفة من القلق والتوتر سرى جميع جسدها خشية مقابلته دون أن تدري كيف تتصرف لينتهي خلال ثانيتين عند رؤيتها السكرتيرة تخرج من مكتبه قائلة: (رئيس التحرير في انتظارك!)

انطلقت عليها انطلاقة الرصاصة لتسكن في عقلها المشدوه من السكرتيرة التي جلست بسرعةٍ وهدوءٍ دون مبالاة بها دون أن تترك لها فرصة الرد لتضطر إلى دخول غرفة رئيس التحرير فورًا وتجده على المكتب منكبًا على

[٢] قراقوشي: نسبة الى قراقوش حاكم مصر خلال عهد صلاح الدين الأيوبي حيث امتازت أحكامه باللا منطقية واللا معقولة والقسوة.

بعض الأوراق التي بين يديه والمتعلقة بملف توظيفها دون أن تفارق سيجارة الهافانا[3] فمه منذ الصباح الباكر حتى أصبحت الغرفة تعجّ بالدخان الكثيف، فلم تتمالك عبلة نفسها من الكح والعطاس، فسمعها الأستاذ عمر منكسًا رأسه نحوها ثم ناظرًا إليها من أسفل إلى أعلى:

(هذا أنت؟)

(نعم، وقد جئت..)

(تفضلي بالجلوس!)

(حسنًا!)

(أنتِ الصحفية الجديدة عبلة الوغليسي.. أليس كذلك؟)

(نعم، وأنا خريجة..)

(ليس مهمًا.. كلّ ما أريده الآن هو إخبارك بما ستفعلينه اليوم لنحدد بعدها ما إذا أعطيناك الوظيفة أم لا)

(ماذا؟!) مندهشة..

(لمَ تصرخين؟ ألا يعجبكِ ذلك؟ أأنتِ معترضة عليه؟!)

[3] نوع السجائر الفاخرة التي يدخنها الأثرياء ومنشأ صناعتها في كوبا، وهي خالية من القطران والنيكوتين.

(لا لا لا أبدًا.. أنا واثقة من قدراتي ومهاراتي الصحفية، فلمَ أخاف من مجرد اختبارٍ عاديّ؟ تفضل!)

(إنه ليس اختبار تحريري أو شفوي بالمعنى المعروف، إنه مجرّد إجراء مقابلة صغيرة مع أحد المشاهير والنجوم المعروفين في بلادنا)

(كالشاب خالد، والشاب مامي، وشمس الدين كاظم، وفتحي نجم، وسيد علي كويرات، وسيد أقومي، أو المخرج مرزاق علواش.. أنا مستعدة لذلك؛ فهم ضمن مجال اختصاصي و..)

وضرب الأستاذ عمر الطاولة ضربًا مبرحًا حتى أرعبها فوق ما هي عليه من الرعب، وصرخ في وجهها وقد احمرّت عيناه من الغضب:

(لم أنهِ كلامي بعد! لذا لا تقاطعيني نهائيًا.. مفهوم؟!) فأومأت برأسها وعينيها المرتجفتين دون كلمةٍ أو تردد.

(ثم مَن أخبرك بأنك سوف تجرين مقابلة فنية مع أحد الفنانين أو ما شابه لأنك اختصاص إعلام فني؟! أنت ستعدّين مقابلة صحفية مع أحد المشاهير الذي أحدده أنا لكِ، أهذا واضح؟! لذا سيكون مع بطل العالم للملاكمة في وزن الديك علي الغرناطي)

(علي الغرناطي؟! ولكنه رياضيّ، وليس لدي خبرة في الصحافة الرياضية أو إجراء مقابلات مع لاعبين ورياضيين من قبل!)

(هذا ليس من شأني، يجب أن تقابلي الشخصية المعروفة التي أحددها أنا فقط لأيّ شخصٍ من أمثالكم أيها الصحفيون الجدد؛ حيث تعتقدون أن العالم لا بدّ أن يسير على مقياسكم، فكُفّي عن هذا الجدل الذي لا طائل منه، هذا إذا أردتِ الوظيفة)

(ماذا؟! طبعًا أريدها! وأين أجد السيّد علي الغرناطي؟)

(في حي باب الواد)

(كيف الوصول إليه؟! أنا لا أعرف أين يقع!)

(لا تسألي كثيرًا.. قلت هو في باب الواد وكفى! هيا انصرفي وقومي بما أمرتكِ به! هيّا!)

وخرجت عبلة من مكتبه ممتلئةً غضبًا وقلقًا بدا أثرهما عليها فورًا عند إغلاقها الباب بحدّةٍ مما أرعب السكرتيرة التي حاولت أن تستجمع نفسها وتسألها لتنفجر عبلة عليها بوابلٍ من الكلمات الجارحة والنابية والقلقة المتبوعة بنحيبٍ حادٍ حيالها دون أن يسمعها رئيس التحرير أو يتأثر بها، وأحسّت بالخوف من عدم النجاح في امتحانها الميداني الجديد لنيل الوظيفة، فهي ستقابل الملاكم الشهير علي الغرناطي، وهو ليس من اختصاصها، ولا تعرف كيفية الوصول إلى باب الواد الذي يقطن فيه.. ساعدتها السكرتيرة على استحياءٍ بإرشادها إلى العنوان والوصول إليه

ومكان المقهى الذي ينزل فيه الملاكم الشهير ولو بشكلٍ مقتضب: (إنه يجاور شارع ديدوش مراد أسفل الجهة اليسرى منه، ويوجد فيه مقهى (سيدي حمدون) الذي يقضي فيه جلّ وقته من الساعة السابعة والنصف صباحًا إلى الثالثة عصرًا)

لكن هذا التبسيط الضئيل لمعرفة عنوانه زادها جهلًا وحيرةً، فهي ببساطة لا تعرف منطقة حي باب الواد هذه نهائيًا، فهي تسكن في الحراش وهي إحدى الضواحي القصية للجزائر العاصمة من ناحية الغرب، كما أن علي الغرناطي قد انقطعت أخباره منذ اعتزاله المفاجئ والمريب في طوكيو باليابان عام ١٩٨٢م، لكنها ما لبثت تنسى كلّ هذا عندما وصلت إلى يسار شارع ديدوش مراد على حسب ما أخبرتها السكرتيرة، ثم تستكمل البحث عنه بدقّةٍ بسؤال المارّة هناك الذين أشار معظمهم إلى أسفل الشارع صوب إحدى الأزقّة الموصلة إلى مدخل حي باب الواد[٤] المجاور للميناء. عندما بدأت عبلة بالنزول إلى المدخل تأمّلت بيوت الحي العتيق الذي لا تعرف ملامحه البتّة سوى على شاشة التلفاز على طرفي سلالمه الحجرية وقد امتزجت عماراتها المطعمتين بالطرازين بالأندلسي

[٤] باب الواد: من الأحياء الشعبية في الجزائر العاصمة.

والأوروبي -الفرنسي خاصّةً- رغم مظاهر الفقر والإهمال البادية عليها وعلى الأطفال الذين كانوا يلعبون ويضايقون الزوار الغريبين، وهي حتى لم تسلم منهم إلّا بعد أن راضتهم ببعض السنتيمات[5] لشراءِ الحلوى بسعادةٍ يشوبها الحزن والخوف.

وبعد قليلٍ وصلت عبلة إلى ساحة الحي la quartier حيث وجدت فيها مقاهٍ كثيرة وزوارها كثر، فلم تعد تعرف أين تجد مقهى سيدي حمدون الذي سيغدو حينها مسمارًا وسط بحر؛ ولاسيما وأنها لا تعرف المكان أصلًا بتفاصيله العميقة، لكن سرعان ما نسيَت ذلك عندما فوجِئت مذعورةً بقدوم مجموعةٍ من الشباب العاطلين -وما أكثرهم في ساحة الحي؛ بل في الجزائر كلّها- من حولها حيث يسألها أحدهم بفظاظةٍ:

(عمّ تبحثين يا حلوة؟)

(يا حلوة؟!)

فيرد عليها أحدهم: (نعم؛ يا حلوة.. ما الذي يأتي بكِ إلى هذا المكان الغريب والفقير والحقير الذي لا يليق بأمثالكِ من الفتيات الجميلات التي لم نشهد مثلهن في حيّنا من قبل؟!)

---

[5] وحدة نقدية أقل من الدينار، حيث الدينار الجزائري يساوي ١٠٠ سنتيم.

(ما الذي تقوله يا هذا؟! أنا جئت إلى هنا للبحث عن مقهى سيدي حمدون؛ أتعرفون أين هو؟)

ردّ ثالثهم: (نعم نعرفه، وأنا مستعدٌّ أن أذهبَ معكِ إن شئتِ)

(لا؛ أنا سأذهب معها لوحدي.. ابقوا هنا)

(ولماذا لا أذهب أنا؟!)

(لا أنتَ، ولا هو، أنا فقط من سيذهب معها)

ليتحول الاختلاف بينهم على ذلك النحو إلى حدِّ الصراخ والشجار، مما دفع عبلة أن تصرخ في وجوهم:

(صمتًا! أنا لم أطلب من أحدكم أن يأتي معي إلى المقهى؛ بل أن تدلّوني إلى مكانه فقط، فعندي موعدٌ هُناك مع شخصٍ مُهِمّ)

(ماذا؟!) ردوا جميعهم متفاجئين.

(نعم؛ مع شخصٍ مُهِمٍّ أجري معه مقابلةً صحفيةً لصحيفة (اللوسوار) حيث يقضي دومًا وقت فراغه في مقهى سيدي حمدون، فهل يدلّني أحدكم على مكانهِ رجاءً؟!)

(ها ها! أسمعتم ما قالت هذه المراوغة؟!)

(ها ها! نعم، قالت نكتةً من أروع النكات التي لم نسمع مثلها، لكن لن تنطلي علينا خدعتها)

تقدم نحوها خطوتين بجسده الضخم، مما أثار القلق لديها: (أفصحي بلا حذلقة! من الرجل الذي ستقابلينه؟)

(وما شأنكَ أنت؟! إنه لقاءُ عَمَل)

(لقاءُ عملٍ أم عشاء عمل؟! ها ها ها!)

(بل هو تغطية لمواعدةٍ مع حبيبها.. ها ها ها!)

(من هو هذا الرجل الذي تهتمين به كلّ هذا الاهتمام؟! هاه؟!)

وفجأةً؛ نزع أحدهم حقيبتها من يدِها: (لعلّ اسمه موجودٌ بداخلها!)

(لا! حقيبتي! أعِدهَا إليّ!)

حاولت عبلة عبثًا استعادة حقيبتها الرمادية المتواضعة من أيديهم وهي تجهش بالبكاء متوسلةً إليهم، لكن دون جدوى، فمازالوا اللحظة يتقاذفون الحقيبة فيما بينهم ويستهزئون بها بألفاظٍ نابيةٍ ومُعيبةٍ دون أن يحرّك المارّة ساكنًا؛ إلى أن بدا لهم رجلٌ من وسط الساحة قادمًا إليهم بخطواتٍ مُتثاقلةٍ وقد ملأ الشيب شعره وحاجبيه مع قليلٍ من التجاعيد المرتسمة على وجهه، وإن كانت قامته وجسده يدلّان على بنيةٍ قوية ورشيقةٍ.. صرخ فيهم بحزم:

(أعيدوا الحقيبة للسيّدة -أيها الشباب- وكفّوا عن أساليبكم المشينة!)

لكن أحدهم وكزه[6] بيده بفظاظةٍ، فسقط الرجل العجوز، لكن سرعان ما نهض وقد تملّكه الغضب، وتقدّم صوب أحدهم وقد كان يهم بقذف الحقيبة لأصحابه، فأمسك بذراعه اليمنى بشدّةٍ لدرجة أنّ الأخير لم يستطع تحريكها لرمي الحقيبة.. (قلتُ لكم أعيدوا الحقيبة لها، ألا تفهمون؟!)

(لا. لقد تجاوزت حدودك أيها العجوز الهرم، وسألقنك درسًا لن تنساه!)

فهمّ بضربه بيده اليسرى، فتجنبها العجوز بسرعةٍ فائقةٍ حيث أحنى رأسه إلى الأسفل، ثم سدّد لكمةً بيسراه نحو فكّه فكسره ليسقط الشاب على الأرض دون حراكٍ ويقف الجميع ومن بينهم عبلة مشدوهين فاغري الأفواه أمام هذا المنظر، لكن أصحابه قرروا الانتقام لصديقهم الصريع من هذا الرجل العجوز الذي أخافهم منذُ الوهلة الأولى، لكن الأخير أمطرهم بوابلٍ من اللكمات النارية أصابت أجزاءً عديدةً ومختلفةً من رؤوسهم وصدورهم وبطونهم أسقطتهم صرعى كأوراقِ الخريف بمهارةِ مُلاكمٍ مُحترفٍ؛ حتى أنه سدد لكمةً قويةً على وجوه ثلاثةٍ منهم

[6] تعني دفعه بلطف.

بالتتابع في آنٍ واحدٍ، فنهض أحدهم وأخرج سكينة جيبٍ وهمّ بالانقضاض عليه من الخلف، فصرخت عبلة: (حاذر!)

تجنب السكينة ممسكًا بيده اليسرى ذراع المعتدي، ويلتفّ حول نفسه مسددًا لكمةً بظاهر يُمناه على وجهه، ثم يسدد أخرى نحو صدره تسببت بضربةٍ غائرةٍ في قفصه الصدري حتى كادت تكسره.. عندها بدأ الدم يسيل من فمه مسقطًا السكين من يده وصريعًا على الأرض في مشهدٍ لم تنسَه عبلة، ليرتسم فجأةً في مخيلتها حيث أعاد ذاكرتها إلى الوراءِ وتحديدًا عام ١٩٧٩م عندما استخدمها الملاكم علي الغرناطي ضدّ خصمه الأمريكي (بيتر هوارد) لإسقاطه بالضربة القاضية خلال النزال الذي جرى في ساو باولو بالبرازيل للحصول على بطولة العالم للملاكمة في وزن الديك، والتي انتهت لصالح الأول بعد ذلك؛ ما جعل الشكوك تساورها حيال هذا الرجل وقدراته القتالية المذهلة لتقودها خيوطها الضبابية إلى البطل الأسطورة الذي تبحث عنه بُغية عملها الصحفي الأول؛ علي الغرناطي واقفٌ أمامها بشحمه ولحمه، لكن سرعان ما تبدد هذا التفكير عندما العجوز طفق يديه وتقدّم نحوها حاملًا الحقيبة:

(تفضلي يا ابنتي، هاكِ الحقيبة!)

(شكرًا لك يا عمّ.. هل سيبقون هكذا طويلًا؟!)

(لا عليكِ مِنهُم، سيظلون نائمين لدقائق قليلة، ويستيقظون كما هي عادتهم؛ يتقاتلون، يتحرّشون، وينامون في الساحة، لا يوجد عمل أو وظيفة تشغلهم في وقت فراغهم، لكن ما الذي أتى بكِ إلى هذا الحيِّ الشعبيِّ الفقير؟! قد تتعرضين إلى الاغتصاب أو السرقة كما كاد أن يحدث معكِ اليوم؟!)

(أنا مضطرةٌ لذلك)

(وما يجبركِ على ذلك؟)

(لقد كلّفتني صحيفة اللوسوار بإجراء مقابلة صحفية مع الملاكم علي الغرناطي، وأنا ملزمة بذلك)

(علي الغرناطي؟!)

(نعم، ويقولون إنه يقضي معظم أوقاته في مقهى سيدي حمدون.. أتعرف أين يقع مِن هُنا يا عمّ؟)

(لا أعرفه بتاتًا! على العموم الحقيبة عندكِ، تفقّدي إن نقصَ منها شيء، حسنًا؟)

وبالفعل؛ بدأت تتفقد محتويات الحقيبة، وبعدها التفتت نحو الرجل فإذا به قد اختفى وتبخّر.. حاولت عبثًا أن تبحث عنه وسط هذه الساحة الكبيرة، لكنها تفشل في ذلك وتنجح في العثور على مقهى سيدي حمدون

بعدما سألت بعضًا من أصحاب المحلات الحِرَفيّة الواقعة أسفل الساحة، والذين أشاروا إلى أنه مقيمٌ على مقربةٍ من تكية سيدي الثعالبي أمام مرفأٍ لسفن الركاب القادمة من فرنسا وإيطاليا، والتي كثيرٌ من شباب حيّ باب الواد العاطلين الهاربين من ظروفهم المعيشية يهاجرون عبرها بطرقٍ مشروعةٍ وغير مشروعةٍ إلى الضفة الأخرى من المتوسط.

وعندما وصلت إلى المقهى المذكور؛ فوجئت بهندسته المعمارية ذات الطراز الغربي الحديث وخدماته الراقية لحظة دخولها من بوابته الزجاجية المتحركة ذاتيًا، وصالة للبلياردو، وزواره من الجنسين؛ مما جعلها تستغرب وجود مثل هذه المقاهي الحديثة في حيٍّ شعبيٍّ تقليديٍّ يعاني سكانه من الفقر والبطالة كباب الواد؛ في تناقضٍ غريبٍ لم تعهده العاصمة منذ ١٢ سنة.. وسرعان ما انتبهت لنفسها عندما اقتربَ أحدهم منها:

(صباح الخير سيّدتي.. شرّفتِ مقهانا)

(صباح الخير.. أهذا هو مقهى سيدي حمدون؟!)

(هو بعينه.. أأخدمكِ بشيء؟!)

(نعم؛ أنا صحفية من جريدة اللوسوار، وجئت لمقابلة الملاكم العالمي السابق علي الغرناطي، وقيل لي أنه يقضي جلّ وقته هُنا)

(آه! تقصدين العجوز الهرم الذي يشرب فنجانًا مِن النسكافيه[7] هُناك؟!)

مشيرًا إليه بتهكّمٍ وهو على طاولةٍ ببساطٍ أخضر إلى اليمين، وكانت ملامحه تشبه ملامح الرجل الذي أنقذها من مجموعةِ الشبابِ الطائشين:

(وبطل عالمي سابق في الملاكمة أيضًا؟! أنا لا أصدق، ها ها ها!)

وبينما تركها النادل لكي يتفرّغ لعمله؛ وقفت عبلة تنظر إلى علي الغرناطي متفاجئةً وغاضبةً في آنٍ معًا بسبب ادّعائه عدم معرفته بمقهى سيدي حمدون، لكنها كانت على يقينٍ من أنه معذورٌ وله أسبابه الخاصة في ذلك؛ خاصّةً لأنه قد اعتزل الملاكمة واختفى عن الناسِ منذُ ١٨ سنة لا يعرفه أحد، النادل شاهد على ذلك؛ لذا بدأت عبلة تتقدم نحوه بخطى حثيثةٍ وحذرةٍ دون أن يشعر بوجودها في محاولتها العابثة لكشف أسرار غيبته الطويلة طوال هذه السنين وما دار فيها من أحداثٍ ومواقف علّها تبرز جزءًا من شخصيته غير المعروفة لكثيرٍ من الناس سواء داخل بلده أم خارجها.

****

[7] النسكافيه (nes cafee): قهوة أوروبية الصنع وتصنع من البن البرازيلي وتعني (المقهى الرائع) بالفرنسية (المؤلف).

الفصل الثاني:
المصادفة السيئة

وقفت عبلة تتأمّله من بعيدٍ وهو يحتسي فنجانًا من النسكافيه، ثم تقترب منه شيئًا فشيئًا، وعندما كان يهمّ بالذهاب إذ بعبلة ترمي أمامه قصاصة ورقٍ قديمةٍ من إعلانٍ قديمٍ كانت تحتفظ به في حقيبتها تظهر فيه صورته وهو شابٌّ خلال نزاله أمام المكسيكي خافيير أورتيغا في طنجة عام ١٩٧٧م قائلةً له:

(لا تعرف المقهى، هاه؟!)

(ما حكايتكِ يا فتاة؟ ألم أنقذكِ من شلّة الأولادِ الطائشين وانتهينا؟)

(بلى!)

(إذن! ماذا تريدين؟!)

(أن تتم معروفك وجميلك وتخبرني عن مكان المقهى وترشدني إليه، لكن أن تدّعي عدم معرفتك به، ثمّ تفرّ من أمامي لحظة سؤالي لك لأجدك هنا في مقهى سيدي حمدون فهذا يحتاج إلى تفسيرٍ منك)

(هذا ليس من شأنكِ أيتها الفتاة الغريبة! أنا حرٌّ في أن أقول ما أعرفه أم لا؛ لذا عليكِ ألّا تتدخلي في حياة سُكّان الحيّ، أتفهمين؟!)

(حياة سكان الحي، أم حياتك الخاصة يا بطل؟!)

(يا بطل؟!)

(أجل؛ أيها البطل علي الغرناطي!)

فأمسك بيدها بشدّةٍ، وبدت عيناه جاحظتين ملؤهما الغضب المكتوم القابل للانفجار في أيّةِ لحظة (شش! اصمتي!) مما لفت أنظار زبائن المقهى المتفاجئين، وبالتالي دفعه إلى التراجع مخاطبًا إياها:

(دعينا نخرج من المقهى ونرى ماذا تريدين!)

(كما تشاء).. قالتها بعد أن تنفّست الصعداء من الخوف الذي كان يملأ قلبها حينها، فهي لم تكن تتوقع أن يرضخ لها أو يوافق على الخروج معها وهو الذي ظلّ بعيدًا عن أعين الناس ووسائل الإعلام المرئية والمقروءة والمسموعة؛ المحلية كانت أم العالمية، وهي لا تعلم أنّ السبب الرئيسي هو تجنّبه ذِكر اسمه الحقيقي أمامهم.. خرج الاثنان من المقهى، وسارا مسافة ميلٍ واحدٍ فقط؛ حيث توقّفا عند مدخل أحد الأزقة هناك أمام باب مبنى

أندلسيٍّ قديمٍ يعود إلى عهد الدايات[8] يحمل بجواره رقم (٢٥). وقف علي الغرناطي سائلًا عبلة بتجهّم:

(ها قد ابتعدنا عن المقهى إلى هذه الزنقة[9]! والآن قولي لي -بحقِّ السماءِ- ما الذي تريدينه مِنّي؟)

(رويدك يا سيّدي، لمَ كلّ هذا الغضب؟! أنا لا أنوي إزعاجك.. كلّ ما في الأمر أني أود إجراء مقابلةٍ معك)

(أيّة مقابلة؟)

(مقابلة صحفية لجريدة اللوسوار الأسبوعية)

(أنا لا أقابل صحفيين، ولا أريد أن أراهم، ولا حتى الإدلاء بأحاديث صحفية لهُم نهائيًا.. ولو سمحتِ إذا كان لديكِ شيءٌ غير المقابلة الصحفية فأهلًا؛ وإلّا دعيني أدخل منزلي فورًا، وانصرفي إلى حال سبيلك، وعودي من حيثُ أتيتِ)

---

[8] حكام الجزائر في العهد العثماني منذ القرن الخامس عشر الميلادي حتى سقوطها تحت براثن الاستعمار الفرنسي عام ١٨٣٠م وقد عرفوا بالدايات وهي جمع داي وتعني الخال باللغة التركية.

[9] الزنقة: هي الزقاق باللغة العامية لسكان الجزائر العاصمة.

(اهدأ يا سيّدي، لمَ كلّ هذا الغضب؟! أبسبب مقابلةٍ صحفيةٍ تُقيم الدُّنيا وتقعدها؟!)

(وأنتم -أيّها الصحفيون- ألا تشبعون من إلقاء الكثير من الأسئلة التافهة والمبتذلة وإجراء المقابلات الصحفية معي أو مع غيري؟! وحتى إن أشبعتُ فضولكم؛ فإنكم لا تقتنعون بها، فتتدخلون في شئوني الخاصة وتشكلّونني بكلامكم المعسول وصوركم البرّاقة كما يحلو لكم، فتارةً تجعلونني بطل الأبطال بعد فوزي ببطولة العالم لوزن الديك إلى عام ١٩٧٦م -وسأبقى كذلك إلى الأبد-، وتارةً عندما أُهزَم تجعلونني مجرّد لاعبٍ مغمورٍ لا قيمة له، وتنسونني نهائيًا وكأني شيئًا لم يُكن، وتارةً تسرفون في الحديث عن حياتي الخاصّة ومشاكلي العائلية دون حياءٍ أو احترامٍ لأحدٍ حتى للمهنة التي تنتسبون لها.. لقد تعبت، تعبتُ منكم ومن الناس جميعًا.. ارحموني من وجودكم رجاءً!)

وبينما كان علي الغرناطي يشكو حاله دونَ وعي؛ كانت عبلة تدوّن ما يبوح به في دفتر ملاحظاتها الصغير.. وما إن رآها تفعل ذلك حتى اشتعلت عيناه وخدّاه احمرارًا من الغضب على عدم مبالاتها له، فينفجر نحوها بالضربِ والصفعِ مُنتزعًا الدفتر من قبضةِ يدها بالقوّةِ، ثم أسقطها على الأرضِ وهي متفاجئة من هولِ ما يحدث:

(ماذا تفعل سيّد علي؟!)

(أنتِ وقحة! كلّ هذا الكلام الذي قُلتُه لكِ وما زلتِ مُصرّةً على عنادك وتستغلين حالي وتسجلينه في هذه المفكرة الصغيرة؟! أنظري ما سأفعل بها)، وقام بتمزيقها أمامها بشكلٍ مُستفزٍّ، فصرخت: (لا! مفكرتي! أرجوك توقَّف!)

(اصمتي! هذا يعلّمك أن لا تتجرئي على القدوم إلى هنا أو مقابلتي حتى، وإياك أن تحلمي بذلك، أتفهمين؟!)

وتركها جاثيةً على الأرضِ، وولج[10] باب منزله المرقم بـ (٢٥) ليغلقه بشدّةٍ، فاندفعت عبلة نحوه طارقةً إياه بكلتا يديها وبقوّةٍ صارخةً والدموع تنهمر من عينيها ملؤهما التوسّل والاستجداء:

(أرجوكَ يا سيدي علي الغرناطي افتح الباب لي لأجري مقابلةً صحفيةً، أو حتى تقريرًا صغيرًا، أو مقابلةً مع أحدِ أفراد أسرتك، أو ألتقط صورةً لكَ.. أرجوك! مستقبلي المهني وعائلتي مرهونٌ بلقائك.. أتوسل إليكَ افتح الباب!)

---

[10] ولج: دخل.

وفجأةً تتوقف عن الصراخِ؛ إذ يفتح الباب ويندفع علي الغرناطي نحوها يوكزها[11] بفظاظةٍ لتسقط على الأرض وتتلطخ ثيابها المتواضعة بتراب الزقاق القذر، ويغلق الباب في وجهها بقوّةٍ فتنفجر عبلة باكيةً بُكاءً صامتًا ممزوجًا بحرقةِ الألم الذي يسري في قلبها كالنار في الهشيم دون أن تبوح به غضبًا وقهرًا في هذا الزقاق الخالي من المارّة الذين لا يبالون بأيّ مشكلةٍ تحدث في حيّهم بالمرّة، وتحدّق بعينيها إلى السماءِ الضيّقة في الأفقِ البعيد رافعةً معها شكواها إلى الأعلى تندب حظها في هذا النهار المشؤومِ مِن بدايته.

****

[11] يوكزها: يدفعها

الفصل الثالث:
القرار الصعب

لم تتوقف عبلة عن الأنين والبكاء؛ فمنذُ ذلك الحين وهي تفكر بما حدث، وكيف سيؤثر عليها وعلى مستقبلها المهنيّ، وكيف ستواجه رئيس تحرير اللوسوار الغريب الأطوار بالأمرِ عن فشلها في مقابلة الملاكم العالمي علي الغرناطي مما يثير غضبه ويؤدي إلى رفض توظيفها؛ وساعتها تتحطم آمالها في الحصول على وظيفةٍ محترمةٍ ضمن اختصاصها، وتصبح عاطلةً إلى جانب شقيقها منتظرين الإحسان والعطف من أهل الخير الذين نادرًا ما يجدونهم الفقراء لتلبية ندائهم..

رفعت نوال عقيرتها بالولولةِ الحادّة، وأجهشت بالبكاءِ المنهمر انهمار المطر كما لو كانت ديكًا مجروحًا هزّ صراخه الباكي أرجاء المعمورة مخترقًا مسامات جدران بيت الملاكم العالمي الصماء، فتتلقفه آذان شابٍ في ربيع عمره مدهوشًا ومتوجسًا خيفةً من مصدر الصراخ محاولًا الاقتراب منه قبل أن يوقفه علي الغرناطي صارخًا:

(إلى أين أنتَ ذاهبٌ يا عماد؟)

(أبي! هل انتهيت من الصلاة؟!)

(كلا؛ لم أبدأ بعد.. لم تجب على سؤالي: إلى أين أنتَ ذاهب؟)
(ذاهبٌ لأفتح الباب وأرى من ذاك الذي يبكي ويملأ صراخه المكان)
(لا تفتح الباب)
(لماذا يا أبي؟!)
(نفِّذ ما أقوله لك، ولا تفتح الباب!)
وعلا الصراخ مرّةً أخرى أشدّ من ذي قبل..
(إن الصراخ لا يتوقف، ولقد ازداد حدّةً عن ذي...)
(فليحتدّ حتى تنفجر حنجرته من شدّةِ الصُراخ.. على الأقل يريحنا من صوته.. لن نفتح له الباب أبدًا! ولا تناقشني في هذا الموضوع، أتفهم؟!)
(لماذا تصرخ عليّ بهذا الشكل؟ وما يضيرك أن أفتحَ البابَ وأتبيّن مصدر هذا الصراخ؟!)
(ألا تفهم؟! قلتُ لك اسمع الكلام ولا تناقشني في الموضوعِ وانتهينا)
لم يقتنع عماد بكلام أبيه المفعم بالتوتر والغضب لحظتها ورفضه التام الاقتراب من مصدر الصراخ المتصاعد بالقرب منه؛ مما أثار شكوكه واستيائه المتصاعد نحوه؛ سيما وأنها المرة الأولى منذ ١٢ سنة يسمع صراخًا حادًا لهذه الدرجة عبر هذا الزقاق المعتم والذي بالكاد يتسلل إليه

ضوء الشمس صباحًا فقط، مما دفعه للمضيّ نحو الباب غير عابئٍ بتحذيرات والده الذي ما إن رآه حتى اندفع نحوه بسرعةِ البرق صارخًا:

(عماد!)

لم يصغ إليه، فأمسك بذراعه وجرّه إلى الخلف نحوه:

(ألم أقل لكَ ألا تفتح الباب؟!)

(بلى؛ ولكنني لم أقتنع بكلامك وتحذيرك، ولم تعطني سببًا واحدًا عن إحجامك عن فتح الباب وتتبع مصدر هذا الصراخ المزعج الذي يرج جنبات منزلنا!)

(إنّه مجرّد صراخ أطفال الجيران الذين لا يملّون من الجري واللعب في أرجاء الزنقة، وكفى!)

(هذا ليس صحيحًا! يبدو أنه صراخ امرأةٍ منكوبة.. لقد أدركت ذلك من صدى الصوت الذي سمعته من الباب.. ربما تحتاج إلى مساعدة، يجب أن ألبي نداءها)

(قف مكانك ولا تفتح الباب!)

(يجب أن..) وقبل أن يكمل كلامه امتقع لون وجه والده غضبًا وهوى بيده عليه ليصفعه بقوّةٍ مما جعله يسقط على الأرض لدرجة أنها من شدّة قوّتها آلمت وجهه وعينيه؛ لم لا؟! فهي من يد ملاكمٍ مخضرمٍ وعريقٍ

أسقطت قضبتها النارية العديد من خصومه ومنافسيه على أرض الحلبة بالضربة القاضية.. وسرعان ما أفاق والده من حالة الغضب التي اعترته وانتابته في تلك اللحظة حتى رآه ممددًا دون حراكٍ، وبدا على وجهه ملامح الأسى والندم وهو يحدّق فيما اقترفته يده بابنه في لحظةِ انفعالٍ، فدنا منه ليحمله وهو ما يزال يضع يده على خدّه المتورم.. وبعد أن استعاد وعيه مذهولًا مما حدث، كما لم يصدّق أنّ والده يقوم بصفعه بهذا الشكل وللمرّةِ الأولى في حياته، وكان يشيح بنظره أمام ولده خجلًا مما فعله به وهو يضمّه إلى صدرهِ بتنهّد:

(آسفٌ يا بنيّ على ما فعلته بك.. لم أتمالك نفسي عند الغضبِ بسبب إصرارك على فتح البابِ ومخالفتك أمري)

(ألهذا الحدّ تخاف من ذلك الصوت المبحوح الذي ينخر مسامات باب بيتنا ويجعلك تفقد صوابك ووقارك؟! وأمام مَن؟! أمام ولدك الوحيد والحبيب الذي بقيَ لك في هذه الحياة بعد وفاة أمي وعمي؟!)

(ولأني أبوك الذي رعاك وطواك بين جناحيه بعد وفاةِ أمّك وعمك -رحمهما الله- كان عليك أن تطيعني في هذا دون نقاش)

(دون معرفة السبب؟! كيف تريدني -يا أبي- أن أقتنع بهذه الحجّة غير المنطقية والتي تفسر ما حدث الآن بهذا الشكل المبهم؟! آسفٌ يا أبي؛ لن

أصرف نظري عمّن وراء الباب حتى أعرف السبب.. اعذرني على كلامي هذا، لكن هذه الأصوات الغريبة تثير شكوكي!)

وأمام إلحاح ولده؛ أضطر علي أن يخبره أنّ الصوت الغريب المفعم بالحزن والبكاء صادرٌ من امرأةٍ شابّةٍ تعمل في حقل الصحافة التقاها في ساحة الحي باب الواد الشعبي وهي تتعرض لتحرشٍ من بعض الشبان الطائشين راويًا تفاصيل ما جرى بينهما هذا الصباح حتى قدومهما إلى منزله وعماد يستمع لوالده بدهشةٍ بالغةٍ مما يسمعه عما حدث وعن الصحفية التي قابلها والده ورفض أن يدخلها بيته، وهي أوّل شخصٍ يأتي إليهم منذ أكثر من عشرين سنة:

(أكلّ هذا الغضب والعنف والمعاملة الجافّة معها وطردك إياها ورفضك أن أفتح الباب لها لمجرد أنها أرادت أن تجري مقابلةً صحفيةً معك؟!)

(نعم) قالها دون حياءٍ أو خجل..

(لماذا يا أبي؟ لماذا؟!)

(حتى لا يعرف أحدٌ مكاننا بالمرة)

(أوه! ليس مجددًا!)

(بلى، وسأفعلها مرّةً ثانيةً وثالثةً، ولقد عكفت طوال حياتي على عزلك أنت ووالدتك عن الناس حتى لا يعرفوا مكاني ومكانكم ويلحقوا بنا

ويتتبعوا آثارنا ويكشفوا أمرنا، وساعتها لن أنتهي من مجاملاتهم وأسئلتهم المبتذلة والتي لا تتوقف، وهذا ما لا أريده، فلقد تعبتُ من هؤلاءِ وتعبتُ من نفاقهم وتملّقهم ومزايدتهم لي عندما كنتُ بطلًا للعالم في وزن الديك دونَ فائدةٍ تُذكَرُ مِنهُم، فهم يأخذون منّي ولا يعطون.. لقد تعبتُ مِنهُم.. تعبت.. تعبت!)

مازال يكررها بغضبٍ ملؤه حسرة ليستأنف كلامه:

(أدركت الآن -يا بنيّ- أنّ ما فعلته اليوم هو لمصلحتك؟)

(بلى، ومن مصلحتك ومصلحتي أن تدعَ هذه الصحفية تجري معك لقاءً صحفيًا يا أبي)

(ماذا؟! أبعد ما قلته لك ومن أجل مصلحتك تقول هذا؟!)

(بل قُل مصلحتك أنت.. أما أنا؛ فلم أجنِ أو أستفد مما فعلته لي سوى الاختفاء والهروب من الناسِ جميعًا لدرجةِ أنني درستُ في جامعة هواري بومدين منتسبًا وباسمٍ آخر بكليّة الآداب قسم اللغة الفرنسية، ولقد كنتُ أرغبُ في دخولِ كلّية الطب، ولعدم وجود نظام الانتساب فيها رفضتَ أن ألتحقَ بها، وكلّ هذا بسبب هروبك الدائم من الناس والمسئولين المحليين، أتحمّل نتائجه بمفردي)

(لكن لو كشفتُ عن نفسي للناسِ، فلن يتركونا نعيشُ بسلام!)

(نعيشُ بسلامٍ أم لا، لقد تعبتُ ومللتُ من الهروبِ كاللصوص.. إلى متى سأظل أهرب وأهرب؟ إلى متى؟!)

وخلال هذا الحوار المُتعِب والمُضنِ سعى عماد إلى إقناع والده بجدوى المقابلة الصحفية واستقبال الصحفية له حتى يتم ذلك في مشهدٍ يحاكي صراع الديكة دون جولاتٍ إضافيّةٍ، حيثُ سرعان ما دقّ جرس الحلبة الكلامية مُنهيًا معمعتها الملتهبة بكلمةٍ خجولةٍ مِن على الغرناطي يدعو ابنه عماد لإدخال الصحفية إلى وسط الدار؛ ما غمره بالسعادة المطلقة لسماعه ذلك حيثُ انطلقَ نحو البابِ ليفتحه وقد وجدَ نوال نائمةً وهي مستندةٌ للباب شاحبة الوجه لكثرةِ ما ذرفته من دموعٍ جرارةٍ لدرجة جفاف عينيها من شدّة البكاء والصراخ المريرين.. وعندما حاول عماد حملها صرخت وحاولت أن تقاومه، لكن سرعان ما استجمعت نفسها واستسلمت لهُ بعدما هدّأ من روعها لتبدأ بلملمة حطامِ روحها الجريحة، وتدخل البيت بخطىً متثاقلةٍ على بعدِ خطواتٍ من نافورة البيت الداخلية حتى رعبت وأصيبت بالقشعريرة عندما رأت (علي الغرناطي)، فحاولت الفرار، لكن عماد أوقفها بتسكين نفسها وتطمينها لمقابلة والده.. وعندما أشار علي إليها بالقدومِ بدأت تتقدم نحوه بتثاقلٍ وترددٍ إلى أن جلست على الكرسيّ المواجه له لتفاجأ نوال بالملاكم الشهير ينهال عليها بسيلٍ من

الاعتذاراتِ والتوضيحاتِ أثار دهشتها واستغرابها.. وما زاد من حدّة ذلك أنه بادرها بقوله:

(هل أوراقكِ ومسجلتكِ جاهزةٌ لإجراء المقابلة الصحفية التي أتيتِ من أجلها؟ أنا جاهز، هيا ابدئي!)

****

الفصل الرابع:
الطفولة المبكرة

لم تصدّق نوال ما حدث! فبدايةً يقوم علي الغرناطي بإهانتها وضربها وقذفها خارج داره كما تُرمى القاذورات، ثمّ فجأةً يكفكف دمعها مُبديًا عميق أسفه عمّا فعل، ويطلب منها السماح دونَ أن يترك لها فرصةً في الكلام سوى أن تجري معه مقابلةً صحفيةً ليبوح بها في صدره حول سيرة حياته الطويلة، لكن ابنه عماد سرعان ما طمأنها وهدأ روعها:

(اطمئني يا آنستي! هذا هو أسلوب والدي في التعبير عن أسفه العميق وطلباته بشكلٍ عفوي)

(آه! فهمت)

(ما بكِ؟! ألن تبدئي الحوار معي الآن؟)

(أوه! بلى بلى!)

تقلّب حقيبتها لتخرج أوراقها وقلمها لتسجيل المقابلة، ومن بينها ورقة الأسئلة المحضّرة لذلك أعدّتها في أحد المطاعم القريبة من الحيّ:

(ها هي! احمم! سيّد علي؛ هل ترغب في أن يدور اللقاء حول فترة غيابك واعتزالك الملاكمة في ١٩٨٢ م حتى هذه اللحظة؟ أم قبلها؟!)

(كما تشائين، ما ترينه مناسبًا ابدئي به.. مهلًا انتظري! دعينا نبدأ المقابلة من البدايات الأولى لحياتي؛ أي منذُ ولادتي حتى بعد اختفائي المذكور سلفًا في طوكيو عام ١٩٨٢ م، أريد أن أخرجَ ما في جعبتي من أسرارٍ وألغازٍ ظلّت لفترةٍ طويلةٍ من الزمن تجثم على صدري وتقلق راحتي بكتماني إياها سنواتٍ عديدةً خوفًا مما يحدث لو أفشيتها لأحدٍ ما، فإلى الآن ما زلتُ أتحمّل عبئها الثقيل في نفسي حتى ظهرتِ أمامي هذا اليوم)

(وهو كذلك يا سيدي.. السؤال الأول: بطلنا السيّد علي الغرناطي يعتبر أحد أبطال الملاكمة في وزن الديك عالميًا بعدما حازه عن جدارةٍ واستحقاقٍ إلى عام ١٩٧٦م في طنجة المغربية، فأصبح مشهورًا ومعروفًا لدى قطاعاتٍ واسعةٍ من الجماهير العربية عامةً والجزائرية خاصةً، إلا أنهم مازالوا لا يعرفون شيئًا عن سيرته الذاتية وحياته الخاصة، فأين ولد ونشأ بطلنا الكبير؟!)

(ولدتُ في حي سيدي الشريف أو حومة سيدي الشريف كما يسميها سكانها المحليون الذين يمتازون بمرحهم وخفة دمهم كما اعتدتُ منهم منذُ صغري، وهو يجاور حي باب الواد من الشرق، ويقع متربعًا على قمة رابيةٍ تطلّ على البحر المتوسط، لكن لأصدقكِ القول؛ أنا لم ألد فعلًا هُناك)

(لم تلد هُناك فعلًا؟! كيفَ ذلك؟!)

(صبرًا عليكِ.. أنا قلتُ لكِ أنّ ولادتي كان في حيّ سيدي الشريف حسبما هو مكتوبٌ في شهادةِ ميلادي وبطاقتي الشخصية، ولكني حقيقةً لا أعرف أينَ وُلدتُ، كلّ ما أذكره في مخيّلتي ذلك اليوم ما قاله والدي بالتبنّي قبل وفاتِه أنه وجدني على باب إحدى التكايا الصوفية في هذا الحي)

(ماذا؟!) عماد ونوال يتساءلان باندهاش.

(نعم؛ لقد وُجِدتُ لقيطًا هُناك وأنا لم يتجاوز عمري الأربعة أشهرٍ فقط)

(هذا غير صحيح! غير معقول! قُل كلامًا غير ذلكَ يا أبي! هذا الكلام كذب.. كذب.. كذب)

(اخفض صوتك يا عماد واهدأ.. اهدأ واسمع الكلام كلّه دون انفعالٍ وغضب.. ما قلته الآن صحيحٌ ولا يحتمل التفنيد أو التكذيب.. ما زال ذلك اليوم المشؤوم يؤرقني ويقض مضجعي سنين طويلةً لدرجة أني لم أعد قادرًا على كتمانه للأبد؛ ولاسيما وأني لم أخبر أحدًا عنه بذلك، بمن فيهم والدتك وعمّك رحمة الله عليهم جميعًا ما عداك، ظللتُ أختزن هذا الأمر في عقلي إلى الآن بكافّة تفاصيله التي لا يمكنني محوها من ذاكرتي بتاتًا.. أرجوك اهدأ يا بُنيّ ودعني أكمل حديثي)

ما إن بدأت حالة عماد المتوترة من شدّة الذهول تستقرّ وتهدأ حتى بدأ والده علي الغرناطي يروي لهم ما جرى في ذلك اليوم:

كان ذلك يوم الأحد الخامس والعشرين من فبراير عام ١٩٥٢م. كان يومًا قارسًا لا يحتمل لدرجة التجمّد بحيث لم يكن يجرؤ أحدٌ من سكان الحي على الخروج إلّا اضطرارا.. كان بردًا قارسًا ناخرًا عظام ذلك الطفل الرضيع الملقى على قارعة الطريق ويخترق مسامات جلده الرقيق مواجهًا لوحده دون غيره زمهرير الجوّ الطاغي عليه، ينتظر مصيره المجهول بشكلٍ جعله يجهش بالبكاءِ والصراخِ من شدّةِ الألم الذي سرى في جسده.. حينها بدأ الظلام يتسلل بين ثنايا الحيِّ على استحياءٍ بعد صلاة العشاء، وظلّ صراخه يخترق جنبات الشارع الذي فيه دون أن يسمعه أحدٌ، فقد كان خاليًا من المارّةِ بسبب الجو البارد وحظر التجول الذي كان مفروضًا من قِبلِ السلطات الاستعمارية الفرنسية على الأحياء الشعبية المجاورة بعد اندلاع المظاهرات العارمة فيها البارحة مطالبةً بالاستقلال التامّ للجزائر وأحداث سطيف الدامية في ١٩٤٥م التي حدثت بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها.. في غضون ذلك بدأ المُصَلّون بالخروج بعد أداء الصلاةِ سريعًا نحو بيوتهم حتى يتجنبوا برودة الليل الشديدة التي تلسع أجسادهم؛ مما جعلهم يتعاكظون أمام باب المسجد

لحظة خروجهم منه بصعوبة، حتى أنهم لم يتلفتوا إلى ما حولهم أثناء سيرهم في الشارع، فلم يلحظوا الطفل الممدد بالقرب من التكية ولا سمعوا صراخه وبكاءه؛ إلّا شخصًا كهلًا كان يبطئ في خَطوه ليخرج آخر فردٍ من المصلين من المسجد وهو يتلوا بعضًا من الآياتِ والأدعيةِ والصلواتِ والأذكار لتهوّن عليه مشقّة الطريق وبرودة الجوّ؛ نحو منزله النائي في أحد أزقة الحي الضيقة هناك، فرغم ضآلة جسمه وتسلل الشيب إلى لحيته وشعره؛ كانت لديه قدرة على تحمل البرد الشديد دون أن يرتجف أو يصاب بالقشعريرة، فقد تعوّد عليه منذ الصغر عندما كان يتدرب على تحمل مصاعب الحياة ومشاكلها عبر جلسات الذكر اليومية التي يجريها أتباع الطريقة التيجانية كلّ أسبوعٍ في تكاياهم حيث من خلالها ينشغلون بذكر الله والتسبيح له والغوص في ملكوته لدرجة الوجد والتوحّد مع ذاته -والعياذ بالله- تنسيهم هموم الدنيا وأمورها عازفين عنها.. ذلك هو الشيخ عبد العزيز بناني تيماوي شيخ الطريقة التيجانية في حي سيدي الشريف ومتولي إدارة تكيتها هناك.. ولأنه كان يبطئ الخُطى في طريقه نحو البيت؛ فقد سمع صراخ الطفل الرضيع بوضوحٍ وتركيزٍ حتى رمق بنظره ناحية التكية الجيلانية المنافسة لطريقتهم في السيطرة على الحيّ المليء وقتذاك بالتكايا من مختلف الطرق الصوفية ليجده هناك يرتعش ويرتجف

رجفة عصفورٍ صغيرٍ من شدّة البرد، فرقّ قلبه لهذا الطفل، لكنه تردد في البداية خوفًا من أن يراه رجال الدرك الفرنسيين؛ ولاسيما أنّ موعد حظر التجول يبدأ قبيل صلاة العشاء حيث ما لبث أن حمله بين ذراعيه متلفتًا يمينًا وشمالًا ويدفئه بعباءته مسرعًا الخطو نحو منزله دون أن يدري ما هو فاعلٌ بخصوصه وكيف سيشرح لأهله عن هذا الأمر.

وما إن وصل إلى مدخل زنقة البياز المؤدية إلى طريق بيتهم مباشرةً حتى تدثّر بظلامه الحالك السواد لدرجة أنه اختفى عن أعينهم تمامًا.. وعندما بلغ باب بيته طرقه طرقًا شديدًا كاد أن يوقظ الجيران من حوله وخصوصًا أن كلتا يديه كانتا ترتعشان من شدة الخوف والبرد، وعيناه ترمقان نظرهما إلى الخلف.. ثمّ توقف لحظة سماع صراخ زوجته:

- حاضر حاضر.. ألا تتوقف عن طرق الباب؟! من أنت يا هذا؟!
- افتحي الباب يا حورية حالًا! أنا عبد العزيز..

ما إن سمعت ذلك حتى فتحت له ورأته يحتضن طفلًا رضيعًا بين ذراعيه حتى أمطرته بالأسئلة والاستفسارات المفاجئة:

- عبد العزيز! لقد أخفتني كثيرًا يا رجل.. لمَ كنت تطرق الباب هكذا؟! ولمَ يداك ترتعشان؟! هل أنتَ على ما يرام؟ هل تشعر

بالبرد؟ وما هذا الطفل الذي تحتضنه في صدرك؟ من أين أحضرته؟!

- شششش! ألا تتوقفين عن الثرثرة بصوتٍ عالٍ يا امرأة؟! لقد كدتِ أن توقظي الجيران وتفضحيني بصراخكِ المزعج هذا.. اصمتي!
- أنا صوتي مزعجٌ ومُؤذٍ! أهذا جزائي لأني خائفةٌ وقلقةٌ جدًا عليك من أن يحدثَ لكَ مكروه؟! سامحك الله!
- وهل يستدعي القلق الذي أنتِ فيهِ أن تنهالي عليّ ومسامعي بالأسئلة والصراخ في أرجاء الزقاق؟! ألا ترين أني في حالةٍ يُرثى لها من شدّة التعب والخوف؟! لم تدعي لي فرصةً كي ألتقط نفسي وأستريحَ حتى!
- أنا آسفة، لم أقصد ذلك، فخوفي الشديد عليكَ جعلني أتصرّف هكذا، لكن طمئن قلبي الملهوف وارو لي ما جرى؟!
- حسنًا يا حورية! لكن قبل ذلك خُذي هذا الرضيع من بين ذراعيّ، وضعيه على سريركِ -لقد نام- ريثما أذهب إلى غرفتي لأبدّل ملابسي وأريح جسدي قليلًا، ثم آتي لتناول العشاء..
- وهو كذلك يا عزيزي..

أخذت الطفل معها ووضعته على السرير بجانب طفلٍ آخر يغطّ في نومٍ عميقٍ، وهو ما عُرِفَ لاحقًا بأنه (بشير تيماوي) شقيق علي الغرناطي ومدرّبه الذي تعلّم على يديه فنون الملاكمة.. لقد كان أيضًا لقيطًا، ولقد عثر عليه الشيخ تيماوي في تكيته منذُ سنتين وخلال الجو البارد القارس ذاته، وكلا الطفلين مُتقاربان في العمر والجسم، لا يفرّقهما شيءٌ أبدًا سوى مصّ الأصابع التي أدمن بشير عليها فترة طفولته المبكرة إلى أن أقلع عنها وقت بلوغه الثانية عشرة من عمره.

المهم؛ تركت حورية الغرفة بعدما تأكدت من أنهما نائمين لتعدّ العشاء لزوجها المسترخي والممدد على سريره من شدّةِ التعبِ والإرهاقِ والبردِ نتيجة ركضه المتواصلِ وهو يتمتم بآياتٍ من الذكر الحكيم وأدعيةٍ صوفيةٍ لتسري عن نفسه وتذهب عنه عناء ما حدث..

عماد يقاطع والده أثناء الحوار:

(وعمّي بشير كان لقيطًا أيضًا؟! أنا لا أصدق هذا! أنت بالتأكيد تمزح يا أبي!)

(عماد! كُفَّ عن مقاطعتي بهذه الطريقة، اهدأ ولا تكن عصبيًا معي حتى أشرح لك)

(كيف تريدني أن أكون هادئًا وأنا أستمع لهذه الحكايات الرهيبة والمفاجئة لي والتي لا يصدّقها عقلٌ ولا دينٌ حيث أكتشف فيها أن أبي وعمي كانا لقيطين ووجدا في الشارع؟! هل يعني هذا أن حضرتكَ ابن حرام؟!)

(أصمت حالًا وإلّا تصرّفتُ معك تصرُّفًا آخر لا يرضيك! دعني أكمل قصتي رجاءً! مفهوم؟)

(أرجوك سيّد عماد، دع أباك يكمل قصته حتى النهاية، فقد يكون له في ذلك أسبابه الخاصة التي أوصلته لذلك، فلا تقاطعه رجاءً!)

ما إن هدأ عماد نفسه وخفف من ثورته وعصبيته حتى استأنف حديثه عن قصة حياته العجيبة عندما وصل إلى لحظة إحضار حورية طعام العشاء لزوجها بعدما استفاق من قيلولته القصيرة وقد زالت عنه شدّة البرودة التي سرت جسده عند عودته إلى المنزل قادمًا من المسجد، وبدأ بتناول طعامه بنهم جائع أفزع أمره زوجته المستغربة من هلعه الشديد على المائدة مما يجعلها تشك في شخصية الماثل أمامها أنه هو الشيخ عبد العزيز بناني تيماوي الزاهد الورع؟! لكن منظر الطعام الشهيّ بأطباقه المختلفة من كلِّ لونٍ كان مُغريًا وحاضرًا أمامه كالكسكس واللحم حلو

وتحبولت[12] والمسفوف الباتني والدوباره ولموساكه السكيكدي ...إلخ فضلًا عن الفاكهة الطازجة، وجميعها من الهدايا والنذور التي يقدّمها الزوار والمريدين إلى التكية التي كان يديرها، وكان خيرها الوفير يذهب نصفه إلى بيته، لكن حورية تجاهلت ما رأته حينها ظنًا منها أن تأثير الطقس البارد الشديد عليه جعله يلتهم الطعام بهذه الطريقة، فتركته على هذا الحال، ثمّ بدأت تسأله:

- أراك تلتهم الأكل بنهمٍ شديدٍ، هل أعجبك؟!
- طبعًا! أنتِ أروع طباخةٍ رأيتها في حياتي، سلمت يداكِ..
- شكرًا لك على هذا الإطراءِ يا زوجي العزيز.. بالمناسبة؛ أخبرتني أنك ستروي لي قصّة الطفل الرضيع الذي أتيتَ به من المسجد الآن؟
- أجل؛ سأخبركِ.. هذا الطفل الذي أحضرته معي وجدته ملقيًا بالقرب من إحدى التكايا المجاورة للمسجد..
- ماذا؟! لقيطٌ آخر! أما كفانا الطفل الأول (بشير)؟! أتريد أن تجعل البيت ملجأً للأيتام؟!

---

[12] هي وجبة طعام من بلاد القبائل عبارة عن خبز من خليط القمح والشعير.

- اصمتي يا امرأة! أتريدين أن يسمع الجيران صوتكِ وتفضحينا ويكتشفوا الأمر؟ أصمتي!
- حسنًا يا عزيزي سأسكت، لكني قلقة جدًا بشأن ذلك..
- كيف؟!
- كنتُ أظنّ أنه سيكون طفلًا واحدًا فقط، لكن طفلين لقيطين سيفتح الباب لمزيدٍ منهُم، ونحن بِغِنًى عنهم وليس لدينا القدرة على الاهتمام بهم بشكلٍ كافٍ، كما أنه سيثير شكوكَ الجيران علينا أكثر من ذي قبلٍ؛ من أين أتينا بهؤلاء الأولاد فجأة؟!
- لا تقلقي من هذا يا حورية! إن الاهتمام بهؤلاء الأطفال اللقطاء هو عملُ خيرٍ وصالح ويرضى الله ورسوله بعدما قست قلوب أهاليهم عليهم ورموهم في قارعةِ الطريق بمنتهى البساطة، لكنّ عمل الخير يؤديه الفرد على قدر استطاعته؛ لذا سأكتفي بهذين الولدين فقط..
- وما دمتَ لا تستطيع أو تقوى على عملِ الخير؛ لمَ لم تترك هذا الطفل في مكانه بالقرب من التكية لعلّ أصحابها كانوا سيهتمون به أكثر منك؟!

- ما الذي تقولينه؟ أجننت؟! إنهم منقطعين ومعزولين عن العالم تمامًا، فهل سيسمعون صراخه وعويله؟ وربما تكون إحدى تكايا الطريقة الجيلانية المنافسة لطريقتنا، أليس الأولى أن نأخذه نحن قبلهم؟!
- أهذا ما يهمك؟! مصلحة الطريقة التيجانية التي تتولى مشيختها في هذه المنطقة فقط؟!
- لولا مشيختي ومصالحها لما وجدتِ هذا النعيم وهذا الأكل الوفير في بيتنا الصغير هذا، أتفهمين؟!
- نعم؛ فهمت، وماذا أيضًا؟!
- أنتِ تعرفين -يا عزيزتي- أنّ كلانا قد حُرِمَ من نعمة الإنجاب، وربما بظهور هذين الطفلين قد أبدلنا الله بهما عن عقمنا لنتخذهما ولدين لنا ويساعداني في إدارة التكية الأساسية لطريقتنا في هذا الحي..
- ما هذا الذي تقوله يا شيخ عبد العزيز؟! نتخذهما ولدين لنا؟! أنسيتَ وأنت رجلُ عِلمٍ وفقهٍ بأن هذا تبنّي، والتبني في الإسلام حرام؟!

- هذا في حال إذا عُرِفَ له أبٌ أو أمٌ أو حتى أقارب، أو مخافة الخلط في الأنساب، أما إذا لم يوجدوا بتاتًا؛ فيجوز تبنيه.
- لكنّ التبني مُحَرَّمٌ في القرآن الكريم الذي هو كلام الله.. أأنت أعرف من الله بذلك؟!
- هو لأن الله أعرف منّي؛ فإنه يسمح لنا نحنُ الفقهاء والعلماء بنسخ الأحكام الموجودة في كتابه العزيز وتبديلها بما يتناسب بالحالة أو الوضع الذي نتناوله، والذي على أساسه نقرأ القرآن قراءةً فاحصةً متوسّعة، ثم إن هذه الأحكام الموجودة بين ثنايا الآيات الكريمة شرعية لا كونية، واختصّت بأحداث تاريخية مُعيّنة ليست بالضرورة أن يكون لها علاقة بعصرنا الحالي بالمرّة، أي إذا خالفتِها لن تنالي غضب الله تعالى، ولن ينقص من إيمانكِ ولا تخرجكِ مِن مِلّةِ الإسلام أبدًا.. أفهمت يا فقيهة زمانك؟! هل أشبعتِ رغبتك بمعرفة الموضوعِ تمامًا؟! إذن دعيني أملأ حجري من الطعام الآن قبل أن تعكري مزاجي بأسئلتك السمجة تلك رجاءً!

صمتت حورية وهي كارهة دون أن تقتنع بكلمةٍ واحدةٍ مما قاله زوجها مع العلم أنها تعلّمت الفقه على يديه؛ لذا لم تجرؤ على سؤاله مرّةً أخرى

حتى لا تستثير أعصابه وهو منهمكٌ في أكله لا يعوقه أيّ شيءٍ عنه، إلا أن دهشتها منه لم تتبدد حوله تمامًا، فما حدث الآن أظهر زوجها بشخصيةٍ مغايرةٍ لم تألفها من قبل، فلم يكن الذي أمامها سوى شخصٍ آخر مليءٍ بالنزوات والرغبات والشهوات الموجودة لدى أيّ فردٍ من البشر.. وسرعان ما تبخرت صورة الشيخ عبد العزيز تيماوي -الوقور الزاهد الورع الذي لا يترك فرضًا ولا سنةً إلا أداها في وقتها، ولا تغريه الدنيا ولا يسعى إليها، يرضى بالقليل ويتعفف عن الكثير، وهو الذي ينصر المظلوم، ويطعم الجائع، ويكسي الفقير والعاري- المرسومة في ذهنها منذ ٢٠ سنة عندما زوَّجها أهلُها بالإكراهِ منه؛ حيث لم يأخذوا رأيها أو موافقتها في ذلك أو مراعاة فارق السنّ بينهما، فعند زواجها كان عمرها ١٢ سنة وهو جاوز آنذاك سن الثانية والأربعين كما جرت العادة في بلاد القبائل التي تجعل المرأة في وضعٍ مُتَدَنٍّ جدًا، وكان الشيخ عبدالعزيز وقتها يدرس الأولاد اللغة العربية والقرآن الكريم في الزاوية التابعة لطريقته في المنطقة، ثم شيئًا فشيئًا صار شيخها، فهلّت البركات والنذور إليه، وتوافد الناس عليه من كافة الطبقات والعائلات ومن بينهم عائلة جابر تيصفاوط والد زوجته؛ مما جعلها تنسى آلامها وغصّة قلبها عندما أجبرت على الزواج منه، فوسامته وأخلاقه وما قيل عنه في مجالس النساء

بدشرتهن[١٣] عن استقامته ونزاهته ورجولته مواصفات كانت تحلم معظم النساء الجزائريات أن تجدها في رجالِ ذلك العصر، فرسمت في خيالها صورةً مثاليةً وجذابةً عنه تعلّقت بها حتى بلوغها سنّ الأربعين لتجده في هذا المساء القارس غارقًا في ملذّاته من أكلٍ وشربٍ ومالٍ وثيابٍ يتحصّل عليها بطرقٍ ملتويةٍ أحيانًا تخالف الشرع أو الضمير وصلت إلى حد امتلاك أطفالٍ لقطاء أو يتامى لينسبهم إليه، وتعاونه الوثيق مع السلطات الاستعمارية الفرنسية القائمة آنذاك؛ ولا سيما بعدما تولّى مشيخة الطريقة في حيّ سيدي الشريف، لكنها ما لبثت أن تناست كلّ هذا واعتبرته في قرارة نفسها محض افتراء، وإن افترضت أنه صحيحٌ فهو حُرٌّ يفعل ما يريد سواءٌ أكان صائبًا أم لا؛ فهو زوجها، ويجب أن تطيعه ولا تعصي له أمرًا ولا تتدخل في شئونه، فطاعة الزوج كطاعة الأب من طاعة الربّ؛ كما رباها والدها، إلى جانب أنه أحبّها حُبًّا جمًّا، وساندها، وحماها، ومنحها الأمن والطمأنينة والسكينة في قلبها بصدره الرحب الذي كان يتقبل استفساراتها، ويتحمل شجارها، ويعطف عليها إذا صرخ عليها أو كاد يضربها، ويعتذر لها، ولا يجرحها بكلمةٍ تؤذي مشاعرها، ولم يعايرها

---

[١٣] الدشرة: تعني القرية باللهجة الجزائرية.

بعدم قدرتها على الإنجاب أو العقم، وهذا هو السبب الذي جعلها تقدره وتحبّه بملء قلبها وتصبر عليه؛ لأنه في ذلك الوقت من الذي يقبل أن يستمرّ في العيش مع امرأةٍ عقيمةٍ ولا تنجب ويتحمل نظرة الازدراء التي يكنها المجتمع ضدّها؟! ولا سيّما أنّ والدها لو علم بأنها كذلك لتبرأ منها أو قتلها حتى يتجنب عار عقمها أمام الناس! فيأتي وجود هذين الطفلين اللقيطَين ليملأ الشيء الناقص في حياتها، ويعوضها عن عقمها وعدم إنجابها؛ لتغدق عليهما من حبّها وحنانها اللذَين افتقدتهما منذ زمنٍ طويل.. وسرعان ما تمرّ الأيام ويكبران، وينشآن في حجرها، ويصبح وجودهما أمرًا واقعًا أمام جميع السكان بمن فيهم جيرانهم الذين لا يكفّون عن إثارة الشائعات والشكوك في أيّ أمرٍ حولهم.. وعندما بلغا سن السادسة من عمريهما أخذهما السيد عبد العزيز إلى تكية الطريقة التيجانية هناك ليعهد بهم إلى الشيخ بوجاوي الحصين أحد مُدرسي القرآن الكريم واللغة العربية في التكية لتعليمهما..

يتوقف علي قليلًا عن الكلام ريثما يرتشف كوبًا من الشاي أحضره عماد..

(يظهر من حديثك الأخير أنك نشأت نشأةً تقليديةً؛ سواء في تربيتك وتعليمك، فلم تدخل مدارس نظامية أو حتى أجنبية)

(هذا طبيعيٌّ يا آنسة عبلة، فأنا ابن أحد مشائخ الصوفية ورجال الدين، وولدتُ في حيٍّ شعبيٍّ تقليديٍّ، ومن المألوف أن أعتاد على هذه الحياة)

بعد ذلك؛ استأنف علي حديثه، عندما تحدّث عن دراسته في التكية وتفاصيل الحياة فيها، فقد كان علي وشقيقه بشير يذهبان إلى كتاب الشيخ بوجاوي الحصين، وهو واحد من عدّة كتاتيب تنتشر في أرجاء المكان؛ هكذا تسميتها في التكايا الموجودة في المدن، أما في القرى الجبلية والساحلية أو المناطق الصحراوية (زوايا) حيث يدرّس فيها القرآن الكريم، واللغة العربية، والحساب، والتربية الرياضية، والموسيقى وآلاتها، وهذان الأخيران مخصصان للأغراض المتعلّقة بالموالد الصوفية، وجلسات الزار، وجلسات الذكر، وتدريب رجالٍ مسلّحين لحماية التكية وأتباعها وشيوخها من اعتداءاتِ الطرق الأخرى واللصوص والفتوات وأيضًا حفظ الأمن داخلها وخارجها دون أن يتعرّضوا لرجال الأمن والجيش الفرنسيين؛ على العكس تمامًا من نظرائهم في التكايا الأخرى الذين يقاومونهم بشدّةٍ إذا قدموا إليهم للتفتيش مما يؤدي إلى وقوع ضحايا.

لم يدرك علي وهو يتجوّل في أنحاء التكية سرّ تلك العلاقة بينهما، فقد ألهاه منظر البهو الداخلي باتّساعه الكبير وبزخارفه الجميلة ونوافيره الداخلية

البرّاقة بطابعها الأندلسي الأخّاذ، لكن ما إن وصل وشقيقه بشير إلى كتاب الشيخ بوجاوي حتى تبدد كلّ ما علق في ذهنه في تلك اللحظة، حيث شعر بعدم الارتياح عندما رآه بجبته البيضاء وبرنسه[14] البني القاتم جالسًا على كرسيٍّ خشبيٍّ يعلو مقامه الرفيع رؤوس جميع الطلاب الذين يفترشون الأرض، ويتوكّأ على عصاه البارزة أمامهم بلونها الذهبي الباهت المخيف، وتبرز عيناه الناعستان العابستان مصوبة نحويهما بعدما أشار بكفّه الأيمن على طلابه بالتزام الصمت دون أن ينطق بأدنى شفة.

- أنتما الطالبان الجديدان إذن؟!
- نعم؛ نحن أولاد الشيخ عبد العزيز تيماوي.

قالها بشير بفخرٍ أثارت الجلبة وسط زملائه في الكتاب وبدأ يرفع عقيرته معجبًا بنفسه قبل أن يضرب الشيخ الأرض بعصاه ضربًا شديدًا..

- لم أطلب منك أن تتكلم أيها الأخرق أمامي، فأنا لم أنهِ كلامي بعد! لذا أطبق فمك واصمت حتى آذن لَك!
- اهدأ يا بشير وأطع كلام شيخك[15]، أتفهم؟ تفضّل يا سيدي، كُلّنا آذان صاغية..

---

[14] البرنس: نوع من العباءات الشعبية التقليدية المنتشرة في الجزائر.

[15] الشيخ تعني عند الجزائريين المدرس والمعلم.

- اسمعا أنتما الاثنان! لا يوجد هناك معاملة خاصّة عندي، فالجميع سواسية هُنا، ولا فرق بين ابن شيخٍ أو بَقَّالٍ أو حَمّال، فكلّهم أتوا من أجلِ العلم.. وبما أنكما جديدان في كتابنا هذا؛ فستسيرون على قواعدي أنا، ستشاركوننا الدرس وأنتما واقفان..
- واقفان! لماذا؟!
- لا تسألني! هذا أسلوبي في التدريس.. ستدرسان وأنتما واقفان، فأنتما لا تزالان جديدَين، وستظلان على هذا الوضع حتى تختما جزءَ تبارك، وستستمرون هكذا مدّة ثلاثة أسابيع.
- ماذا؟ ماذا؟! هل سنظل ندرس عندك ونحن واقفون والبقية جالسون حتى نختم جزء تبارك كلّه خلال ثلاثة أسابيع؟ هل جننت يا هذا؟!
- بشير! أصمت!
- لن أصمت يا علي! يجب أن يعرف حقيقة كوننا نجلي الشيخ عبد العزيز تيماوي صاحب هذا المكان وهذه الحضرة التي تشرف عليها حضرتك؛ لذا يجب ألا تتجاوز حدودك معنا، أتفهم؟!
- قلتُ لكَ اصمت يا بشير، وكفى!

وعند محاولة إيقاف بشير وتهدئته ضرب الشيخ بوجاوي الأرض بعصاه مجددًا فسكت كلاهما متفاجئين ومنصتين له..

- يبدو أن أخاك الثائر هذا سيتعبنا معه ويثير المشاكل؛ لذا أرى أنه سيبقى واقفًا معنا حتى يختم جزء عمّ، ما رأيك يا بني؟!
- جزء عمّ! لماذا يا شيخي؟! إنّه لم يكن يقصد ذلك، أحيانًا يتصرف بشكلٍ أهوج ما يلبث يعتذر عنه ولا يكرر ذلك أبدًا؛ لذا سيعتذر لك الآن وسوف نكون طوع أمرك..
- إذن نفذا ما قلته لكما بالحرفِ الواحد.. مفهوم؟!
- مفهوم..

ما إن هدأت ثورة أخيه حتى بدأ علي يلملم شتات أفكاره بعدما تبعثرت وقتها لتستوعب ما حدث أمامه، فقد كان يرى قباله وضعًا غريبًا وشخصيةً غريبةً لم يألفهما من قبل، فقد ظنّ أن مكانة والده بالتبنّي المميزة في التكية قد تعطيه وضعًا خاصًا عند تعليمه وتربيته، لكن عندما وقف أمام الشيخ بوجاوي بشخصيته غريبة الأطوار تبدّد كلّ شيءٍ يتعلّق بما كان يتوهم حينها في رأسه، رغم أنه لم يكن مخطئا في اعتقاده؛ هذا ولاسيما أنّ جميع من فيها مستعدون لخدمته ووالده وشيخ تكيتهم بلا حدودٍ وبلا مقابل، لكن عندما يصلون إلى الشيخ بوجاوي يلتزمون الصمت وهم

مرتجفون عند ذكرِ اسمه.. لم يكن يعرف من هو وما سرّ قوّته، فلقد فرض أسلوبه على جميع الطلاب مهما علا قدر حسبهم ونسبهم أو قربهم من شيوخ الطريقة التي ينتمون إليها؛ حتى أدرك أنه كان صديق والده ورفيق دربه منذ كانوا أعضاء في فرقة أنصار الطريقة التيجانية – كتيبة الفتيان أثناء صراعهم مع نظرائهم من الطريقة الدرقاوية جنوب وغرب مستغانم أواخر القرن التاسع عشر وقتما كان الفرنسيون يقومون بإثارة الخلافات بين الطرق الصوفية بهدف إضعافها والهيمنة عليها لتصبح في خدمتهم بعدما كانت ضدّهم؛ حيث كانوا يشكلون فيما مضى العمود الفقري للمقاومة الجزائرية المسلّحة، مرورًا بقضائهم فترة الاعتقال داخل سجن البرواقية[١٦] وهما لم يتجاوزا الواحدة والعشرين من عُمريهما؛ بتهمة اعتدائهما على جنديين فرنسيين حاولا اقتحام زاوية طريقتهم الواقعة قرب جبل الشريعة[١٧] سعيًا وراء الفدائيين الذين قاموا بتفجير دورية عسكرية على طريق البليدة – المدية الجبلي فترة ما كانوا مغضوبًا عليهم وطريقتهم التيجانية من قبل السلطات الفرنسية؛ إلى أن تغيّر كلّ هذا في

---

[١٦] أحد السجون العسكرية القديمة في البليدة.

[١٧] جبل ثلجي في البليدة، وهي واحدة من المنتزهات السياحية التي يرتادها الجزائريون في فترة العطلات.

مطلع العشرينيات من القرن العشرين عندما تمّ التصالح بينهم فيما بعد، وكان كلٌّ من والده والشيخ بوجاوي والشيخ سحنون (توفي في ١٩٤٩م وعمره ٨٢ عامًا) الدور الأساسي في تحقيق ذلك، وبفضله وصل الأوّل إلى أعلى السلم الوظيفي في الطريقة، وأصبح شيخًا لزوايا وتكاياها في تيزي أوزو والبويرة وعين مليلة بقسنطينة وأخيرًا حومة سيدي الشريف بالجزائر العاصمة.. وأثناء ترقّيه وصعودِه لم ينسَ رفيق دربه وطفولته في أن يشركه بهذا النجاح، فعينه نائبًا له وكاتمًا لأسراره الدفينة والمسئول الأول عن الزوايا والكتاتيب أثناء غيابه.. لم يدرك علي هذه الحقيقة إلّا بعد انتهاء الدرس عندما أخبره أحد زملائه في الحلقة بعيدًا عن الأنظار حتى لا يناله سخط وعقاب أستاذه إن سمعه يبوح بسرّه لغيره، فأدرك علي منذ الوهلة الأولى بأنه سيواجه هو وأخوه ظروفًا صعبةً خلال دراستهم وإشكاليةً معقّدةً طرأت في فكره تتمثل بثلاثةِ أشياء؛ الشيخ بوجاوي، وعلاقته بوالده، وعلاقتهما بالفرنسيين؛ قد تستغرق أعوامًا طوالًا لفكِّ رموزها.

****

الفصل الخامس:
الشيخ بوجاوي

بينما كانت ترتشف كوب الشاي مستمعةً بإرهافٍ إلى كلام الملاكم المخضرم حول سيرة حياته؛ تستوقفه قليلًا:

(ألهذا الحدّ كان سر الشيخ بوجاوي يشغل تفكيرك في تلك الفترة طوال الوقت؟! أنا لا أصدق هذا!)

(قد تستغربين ذلك، لكني كان يجب أن أهتمّ بذلك؛ حتى سرّ قوته وتسلطه علينا بأساليب لا يتصورها عقل)

(حقًا؟! كيف كان يتعامل معكم أثناء الدرس؟)

استأنف علي حديثه مع عبلة شارحًا لها أسلوب شيخه بوجاوي في التدريس وقتها، وكان عماد في غرفته منطويًا على نفسه في حالة ذهول تام بعدما آثر اعتزالهما على تلقّي أذنيه المرهفتين من كلام وأمور لا تصدق عن والده قد يفقده اتزانه وصوابه وثقته المطلقة به:

الشيخ بوجاوي[١٨] في مجال التدريس فريد من نوعه، وغريب الأطوار، ويختلف عن نظرائه في بقية الكتاتيب والزوايا الأخرى بذلك، فهو لا يبدأ

---

[١٨] ينطقها الجزائريون (بجاوي).

المقرر من عند جزء عمّ؛ بل من بداية سورة البقرة فما تلتها من سور وهي طويلة جدًا مما يؤثر سلبًا على ذاكرة التلاميذ الصغار المحدودة في حفظها واستيعابهم لها، ومن أجل ذلك يبدأ الشيوخ بتدريسهم السور الصغيرة تيسيرًا لهم، أما هو فيرى أنّ الطالب المُجِدّ في نظره هو من يبدأ من الجزء الأصعب في تلاوة القرآن الكريم بحفظه للسور الكبيرة والطويلة العسيرة لكي يقوي قراءته وإتقانه لأحكام التجويد فيصبح بإمكانه تلاوة السور الصغيرة بفصاحةٍ ويسرٍ مستشهدًا بتجربته الناجحة في ذلك بمنطقة بلاد القبائل حيث لا يكلّ ولا يملّ مِن روايتها على بقية زملائه الشيوخ بأنه أجاد حفظ سور البقرة والمائدة والنساء وهو في سنّ السابعة من عمره، ورغم أن هذا صحيح فعلًا، لكنه ليس مبررًا ليكون مبدًا أساسيًا في تعليم القرآن الكريم وتحفيظه؛ ولاسيما أن الذين يستطيعون قراءة وحفظ السور الكبيرة لديهم ملكات خاصة تمكنهم من ذلك غير موجودة لدى غيرهم، ولا يصبح الطالب عنده حافظًا مجوّدًا لجزءٍ من الأجزاء إلا بعد تلاوته أمامه ثلاث مرات دون أية أخطاء تُذكر، ولا يمنحه الإجازة أو الشهادة الدينية في ختم القرآن الكريم إلا إذا كان يتلوه بطريقة ورش فقط، وما عداها من قراءاتٍ فممنوعٌ لأنه لم يكن يجيد سواها خلال دراسته في الكتاب وحتى عندما أصبح شيخًا في التكية.

ومن أساليبه الغربية أنه يأمر الطلاب الجدد بالوقوف أثناء الدرس في الحلقة، ولا يجلسون إلّا بعد أن يحفظوا جزء عمّ كاملًا؛ معللًا هذه الطريقة أنها تميز بين الطالب المجتهد والمهمل، فمن يخالف أو يعترض على أوامره فيعاقبه إما بالوقوف على رجلٍ واحدةٍ لمدة ساعةٍ ونصفٍ، أو الفلقة، أو أن يكون خادمًا في بيته لمدة سنة، أو تنظيف التكية تنظيفًا كاملًا طوال اليوم، أو حرمانه من الدروس لمدّة أسبوع، أو يجعله يدور حول نفسه في الساحة تحت أشعة الشمس الحارقة عشر مرات ...إلخ. ما إن أدرك علي كلّ هذه الأمور الرهيبة ولا مناص من تغييرها أو تجنبها وأن مكانة والده الرفيعة في التكية لن تفيده في مواجهة الشيخ بوجاوي وأساليبه الغريبة؛ ولاسيما أن الأول سيؤيد الأخير ويقف إلى جانبه في كل شيء، فيخضع للأمر الواقع ويقرر تحمل الوضع السيء والصبر على مكارهه بأقصى ما يستطيع، عكس شقيقه بشير الذي كان يتمرد كثيرًا على الشيخ بوجاوي ولا يتحمل أسلوبه بتاتًا، فيتعرض باستمرارٍ لعقابه المتعدد الأنواع، وما إن يحاول الهروب نحو البيت ليستجير بوالده استجارة الملهوف من الرمضاء بالنار يقوم بمعاقبته وبشدّةٍ ويشدد على معلمه بعدم التساهل معه إذا لم يلتزم طاعته خلال الدرس، إلّا أن هذا لم يمنعه من التمرد والهرب من حلقته ليجد راحته ومتعته ولينسى همومه في

كتاب التربية الرياضية دون علم والده وشيخه بذلك؛ حيث تعرّف على أحد طلابه وهو منصور حماني الذي جذبه إلى رياضة الملاكمة خلال أخذه إلى نادي مولودية [19] تيزي أوزو عند مدربه جلال تيصفاوط أحد الملاكمين العالميين المخضرمين في هذا المجال لاحقًا، فأصبح بشير متعلقًا بالملاكمة لدرجة أنه أهمل دراسته واضطهاد أبيه له مما دفعه إلى الفرار من البيت بعد ثلاث سنواتٍ من دراسته المتعثرة داخل أروقة التكية دون أن يترك وراءه أيّ أثر.. أما علي؛ فتحمّل الذلّ والهوان الذي كان يتلقاه من الشيخ بوجاوي، ولم يكن ينسيه هذا الوضع المرير سوى أصدقائه في الكتاب الذي تعرف عليهم خلال فترةٍ وجيزةٍ بأحاديثهم وطرائفهم ودعاباتهم المثيرة للضحك إلى حدّ الموت أو البكاء حسب ما يريح قلوبهم المجهدة من الكبت والشقاء الذي يتجرعوه سواء في التكية أو خارجها لتثمر عن صداقة متينة تدوم معه حتى بعدما يصبح بطلًا للملاكمة في وزن الديك قبل اختفائه المريب، ومن بينهم فاضل الغيزاني من وهران وهو مفتي الجمهورية الجزائرية ورئيس المذهب الحنفي في جامع كتشاوة، وفتحي نجم من تيزي أوزو والذي صار مطلع الستينيات من أهم مطربي

[19] مولودية تعني الأهلي باللهجة الجزائرية.

الجاز والبوب البربريين، وجميع أغانيه باللغة الأمازيغية رغم إتقانه العربية ومن أشهرها (el zabana) حيث طغت شهرته أرجاء الجزائر وتونس والمغرب وفرنسا، وتأثر به العديد من المطربين هناك كالشاب مامي ورشيد طه وناس الغيوان[20] والشاب خالد ومحمد الجبالي وباتريك لافوار وفارس سماتي قبل أن يلقى مصرعه في حادث طائرة متجهة إلى مصر في عام ١٩٨٠م، وعدنان بوكشيش وهو أمازيغي ولكن من شرشال، ويعدّ من أبطال الجزائر والعالم في لعبة التنس الميداني؛ حيث فاز ببطولة فرنسا المفتوحة ثلاث مرات أعوام ١٩٧٠م و١٩٧٢م و١٩٧٣م وبطولة ويمبلدون عام ١٩٧٨م قبل أن يوافيه الأجل في تاهيتي أثناء إجازته في عام ١٩٨٩م بالسكتة القلبية.. بعد الدرس يذهب خلسةً إلى كتاب الشيخ عميرات للتربية والتعليم الموسيقي حيث يتم تعليم الطلاب هناك أصول الموسيقى المحلية الشعبية والأندلسية والدينية كالملوف والغرناطي والعزف على الأدوات الموسيقية الأندلسية كالدف الكبير والصغير والخشيبات[21] والكمان والربابة ...إلخ. كذلك يعلمونهم أصول

[20] فرقة مغربية مشهورة اشتهرت في منتصف السبعينيات.

[21] نوع من الطبول الصغيرة يحدث النقر عليها صوتًا جهيرًا، ومن أهم الأمثلة على ذلك الخشيبات العراقية.

الرقص الصوفي كالمولوية والحضرة لكي يؤدوها في المناسبات التي تقام داخل التكية وخارجها كجلسات الزار والذكر ولذلك، فاستهوته الموسيقى بدلًا من الرقص؛ ولاسيما نوعًا واحدًا فقط وهو اللون الغرناطي الذي انجذب إليه بشكلٍ طاغٍ وأتقنه بعد إتقانه العزف على الكمان أيضًا لدرجة أن زملائه من كثرة ما يدندن أو يترنم بأغاني وموسيقى من هذا النوع لقّبوه بـ (علي الغرناطي).

(إذن سميتَ لولعك الشديد بالموسيقى الصوفية الأندلسية؛ ولاسيما اللون الغرناطي فحسب!)

(صحيح آنسة عبلة، فهو لقبٌ مستعارٌ ولا علاقة له بأسرتي أو بأصولي، وليس لأن أرومتي[٢٢] تعود إلى مدينة غرناطة الإسبانية ولا يحزنون.. وقد اشتهرتُ به أمام الناس جميعًا، مع العلم أني احترفت الملاكمة لا الموسيقى، وإن كنتُ ما أزال بارعًا في عزف الكمان ودندنة كثيرٍ من موسيقى الغرناطي عليها)

(ما الذي جعلك إذن تترك الموسيقى؟!)

[٢٢] أي أصولي أو جذوري.

(مطاردة عيون الشيخ بوجاوي لي في كافة أنحاء التكية للبحث عني واكتشاف مكاني حتى عرفوه ونقلوا سرّه إلى والدي الذي ما فتئ بعدما علم يضربني ويوبخني وينهرني؛ ولاسيما أن شيخي اللئيم أخبره كذبًا بأني كنت أتغيب عن درسه باستمرار لمدة أسبوع وأذهب عوضًا عنه سرًا إلى حلقة الشيخ عميرات لسماعي وتعلمي الموسيقى رمز الفسق والفجور على حساب حفظ القرآن الكريم رمز الخير والثواب مع العلم أنّ الأول أسس على يديه كعلمٍ من العلوم الرئيسية داخل التكية، وهذا غير صحيح، فأنا لم أتغيب بتاتًا عن دروسه؛ لأن ذلك لن يكون في صالحي فالعقاب سيكون أسوأ، ولم أكن أذهب إلى هناك إلا بعد انتهاء الدرس حيث كانت حلقتهم تستغرق ساعتين، ورغم كل ذلك فإن أبي عنّفني بشدةٍ وقسوةٍ دون رحمة، ليس لأنه صدّق كلام رفيق دربه الشيخ بوجاوي الذي يعرف أن جلّه كذب، لكن سعيه لأن يجعلني خليفةً له على مشيخة الطريقة يجبره على ذلك التصرف والذي رغم قسوته لم يمنعني من حبّ الموسيقى والغناء، فكنت أخفي كماني في كيس كتبي مُدّعيًا أمام والديّ بأني ذاهب عند أحد زملائي لاستذكار بعض الدروس الغائبة عنّي، فنتجمع جميعًا في مقهى بو منصور رحيمة الواقع

بعمق أحد الأزقة البعيدة عن وسط الحي وأعين رجال بوجاوي وجواسيسه لنمارس هوايتنا المفضلة هناك دون رقيبٍ أو تدخلٍ من أحد)

(ووالدتك؟ ألم تتدخل لحمايتك وبشير من اضطهاد أبيك لكما؟!)

(والدتي كانت مغلوبة على أمرها، فلم تستطع أن تفعل شيئًا حيالي وأخي بشير والذي قبل هروبه تعرّض لضربٍ مُبرِحٍ من قبل والدي لتجرُئِه على كسر عصا الشيخ بوجاوي المستخدمة لضربه أمام الطلاب، فحاولت أمي عبثًا حمايته ولكن دون جدوى ولتنال نصيبها من الضرب والتوبيخ، إلّا أن هذا لا يعني أنها كانت تستكين وترضخ لذلك الوضع، أذكر عندما حاول أبي ضربي بالنبوت[٢٣] وقفت له بالمرصاد وطوقتني بكلتا ذراعيها موجهة ظهرها نحوه وتصرخ بصوتٍ عالٍ (لن تلمس شعرةً واحدةً من شعر ورأس ولدي قبل أن تهشم رأسي بيديك.. أتفهم؟!) سرعان ما تراجع وسكت مكتفيًا بنظرةٍ حادةٍ وغاضبةٍ علينا ثم انصرف).

(وهل كفّ عن إيذائك بعد هذه الحادثة؟ سيّد علي؟ سيّد علي؟).

لم ينصت لندائها المتكرر له وهو يرتشف الشاي شاردًا بذهنه عنها وغارقًا في ماضيه الأليم حيث لايزال يتذكر آخر الكلمات العابرة والأكثر حرقة

---

[٢٣] نوع من العصى الغليظة يستخدمها الفتوات المصريين في أحيائهم الشعبية وتكون عادة مسمرة بمسامير.

ووقعًا في نفسه من فاه أخيه بشير عندما كان يحزم فيها أمتعته لحظة مغادرته من البيت قبيل شروق الشمس ودون أن يعلم والديه بذلك ما عداه حين أفاق من نومه لشرب الماء ثم الوضوء لصلاة الفجر ليراه محاولًا ثنيه عمّا ينويه دون جدوى (اسمع يا علي! سأرحل من هنا يعني سأرحل من هنا، هذا قرار نهائي)

(وتترك والديك؟!)

(إنهما ليسا والدينا أصلًا، ألا تفهم؟)

(ماذا؟! ليسا والدينا؟! ما الذي تقوله؟)

(أقول الحقيقة، لو كانوا كذلك لما عاملونا بهذه الطريقة السيئة)

(تقصد بالضرب والعنف والقسوة تجاهنا؟ إنهم يريدون بهذا مصلحتنا فقط ولا يريدوننا أن نقع في الخطأ)

(لا تكن ساذجًا! إنهم يعاملوننا معاملة اللقطاء الغرباء وليس كأبناءٍ لهم، ألا تلاحظ بأنهم لا ينادوننا بكلمة "بُنيّ" أو "ولدي"؟ وهل كانوا يهتمون بنا عندما نمرض أو نبكي أو نضحك أو نصرخ أو يهتموا بمشاعرنا وأحاسيسنا التي نكنّها لهما من مشاعر البنوّة؟! بل كانوا يخجلون من تقبلينا ومناداتهم لنا بـ "أبنائنا" أو "أولادنا"، وهم عندما

يعلمونا ويطعمونا ويلبسونا ليس لأننا أولادهم؛ بل ليجندونا لخدمة مصالحهم الخاصة)

(يبدو أن الضرب المبرح التي تعرضت إليه جعلك تقول أشياء غير حقيقية فيها مبالغات لا أساس لها من الصحة بشير)

(أبالغ أو لا أبالغ، لقد قررت الرحيل وفورًا، لم أعد أطيق العيش في بيت الغرباء هذا المليء بالحقد والكراهية.. دعني..)

(أين ستذهب في هذا الجو البارد؟)

(أيّ مكان، أرض الله واسعة)

ليتركه بشير حائرًا وغارقًا في معمعة كلامه الغريب ووقعه على مسامعه لأول مرة، والمؤلم والمشكك في مشاعره وأحاسيسه الصادقة والساذجة تجاه والديه بالتبني قبل أن يبخر صوت نداء عبلة العالي له كل ما يدور برأسه..

(سيّد علي؟!)

(هه! ما الأمر؟ هل قلت شيئا؟!)

(نعم؛ كنت أسألك عن والدك بعد تلك الحادثة المذكورة آنفًا، هل كفّ عن إيذائك؟)

(لا؛ أبدًا، لكن خفت عن ذي قبل ولم يعد يعنفني كثيرًا كما في السابق؛ ولاسيما بعد ثلاث سنوات من تلك الحادثة)

(ولماذا بعد ثلاث سنوات؟!)

(لأنها مدة دراستي في التكية، والتي قضيتها هناك بالتمام والكمال بأفراحها وأتراحها داخل أسوارها النحاسية الزجاجية اللماعة من خارجها والكئيبة من داخلها، وبعدها حصلت على إجازة ختم القرآن بقيت خلالها أحفظه عن ظهر قلبٍ وأنا واقف أتحمل إهانات ومعاملة الشيخ بوجاوي لي، ولم أكن أعرف أن هذه النتيجة ستكون بارقة الأمل بالنسبة لي من خلال حدثين مهمَّين أحدثا تحولًا في مجرى حياتي كلّه!)

(وما هما؟!)

في تلك الأثناء، عندما كان يحدثها حولهما ظهر عماد أمامهما بعدما هدأ روعه الرزين من هول الصدمة جراء ما سمعه من قبل في بداية الحوار المثير بينهما منصتًا لما يتداولانه فيما بينهما من معلومات غريبة الوقع على نفسه تدور حول حياته.. لم يعد يجدي الاعتراض والاستغراب منها، بل ربما تكشف له بعضًا من أسرارها الغائرة في الصدور؛ ولاسيما ما يتعلق بأمه، فقد كانت أول مرّة يلتقي فيها علي بزوجة المستقبل بعد ختمه للقرآن الكريم ثم علمي أصول الدين والتصوف التي استغرقت سنة على

يد والده ليصبح بعدها ذراعه الأيمن وسرّه المكنون في إدارة التكية وكاتم أسراره، وهذه الوظائف كانت من اختصاص الشيخ بوجاوي الحصين، فسرعان ما انتزعهما منه، وهذا ما أثار حقد وغلّ الأخير ضدّ أبيه بالتبني، لكن لم يظهره أمامه حتى لا يناله الأذى والاضطهاد من رجاله وأتباعه، فقرر بعد قيام ثورة الفاتح[٢٤] من نوفمبر عام ١٩٥٤م تقديم استقالته بعدما افتعل هو ورجاله مظاهرة مندّدة بالاستعمار الفرنسي داخل التكية، فأمر الشيخ عبد العزيز بفضها بالقوّة، فاقتحم حرسه حلقته واشتبكوا معهم مخلفين عددًا كبيرًا من الجرحى، ويتم طردهم منها لينضم إلى صفوف جبهة التحرير الوطني ويتبوأ العديد من المناصب التنظيمية قبل وبعد الاستقلال وكان آخرها رئاسة اللجنة الإسلامية في الحزب بالإضافة إلى منصبيه في الحكومة كوزير للشئون الدينية ورئيسًا للمجلس الإسلامي الأعلى، وقام بإشفاء غليله ضد رفيق دربه السابق واللدود عبر مصادرة تكيته وأملاكها ضمن حملة في ١٩٦٥م ضدّ الطرق الصوفية ورجال الدين الذين تعاونوا وتواطؤوا مع السلطات الاستعمارية الفرنسية آنذاك.

---

[٢٤] لفظ يطلقه سكان شمال إفريقيا على اليوم الأول من أي شهر ميلادي.

ما إن أعطاه هذا المنصب بعد إجازته[٢٥] في القرآن والفقه؛ أدرك علي أن جهوده في التعليم قد آتت أكلها، وأن سنوات القهر والاضطهاد التي قضاها تحت رحمة الشيخ بوجاوي لم تذهب سدى، وعرف أيضًا مدى حبّ والده الشديد له ولمصلحته، وليس كما قال شقيقه بشير قبل رحيله، ولم يكن كل ذلك سوى قشور هشة تخفي الحقيقة المرّة بأن والده قام بهذا كلّه من أجل مصلحته الشخصية وهي السعي للبقاء شيخًا على التكية، ويرث أبناؤه من بعد هذا المنصب ليضمن سيطرته وأسرته على سكان حي سيدي الشريف ومعظمهم من أتباع طريقته الصوفية ليساهموا في دعم مشيخته العليا للطريقة بإبقائه شيخًا لهم ضامنًا وصول أموالهم ونذورهم إلى تكيته دون قيدٍ أو شرط، ليكتشف هذه الحقيقة عندما أخذه معه في مهمّةٍ سرّيةٍ إلى منزل الضابط العام الفرنسي لمنطقة شرق الجزائر العاصمة الكولنيل ريشار دوبوفيه والواقع أعلى شارع ديدوش مراد حاليًا في إحدى العمارات البيضاء الشاهقة الكولونيالية الطراز وهي مزيج ما بين الطرازين الأندلسي والفرنسي المتوسطي والتي لا يقيم فيها سوى الفرنسيين فقط سواءٌ كانوا مستوطنين أم موظفين، ولا يحق

---

[٢٥] الإجازة: هي شهادة التخرج التي تقدمها المدارس الدينية لطلابها في حقول العلوم الشرعية واللغة العربية.

للجزائريين -باستثناء الحركيين[26] منهم- السكن فيها إلا بإذنٍ خاصٍ من الحاكم العام للمدينة؛ هذا إذا وافق!

لم يشاهد علي مثل هذه المباني العالية علوّ الجبال وتصل إلى عنان السماء أو تكاد مِن قبل، فهو شابّ قضى طفولته في أزقّة حي سيدي الشريف الفقيرة والمظلمة ظلامًا حالكًا بالكاد يتسلل نور الشمس إلى دورها العتيقة على استحياء وشوارعها ضيقة للغاية ضيق الشرايين بالقلب، وليخرج منها إلى هناك خروج الذئب من جحره إلى الغابة ليستظل بنور الشمس الدافئ، لكن سرعان ما تبدّل ذلك عندما بدأ يصعد درجات السلم حيث لم تختلف عن تلك التي في بيته.. وصل مع والده إلى منزل الكولونيل ريشار في الدور الثالث، ويضغط الشيخ عبد العزيز على الجرس وهذا بالنسبة لعليّ من الأشياء التي لا توجد في بيته، ثم يسمعان صوتًا يردّ عليهما قبل فتحه الباب.

(من الطارق؟)

(هذا أنا مسيو ريشار، الشيخ عبد العزيز تيماوي شيخ الطريقة التيجانية في حي سيدي الشريف)

[26] الحركيون: صفة كانت تطلق على الجزائريين المواليين لفرنسا قبل الاستقلال.

(كلمة السر؟)

(شيخ الطيور يحيى أمير النسور)

(إذن لقد وصلت! تفضّل، لكن مهلًا! من هذا الذي بصحبتك؟)

(إنه ولدي عليّ؛ كاتم أسراري وخليفتي على مشيخة الطريقة)

(وأين الشيخ بوجاوي الحصين كاتم أسرارك؟!)

طلب منه أن يدخله مع ابنه إلى الشقة.. في البداية رفض، ثمّ ما لبث أن وافق كي لا تحدث بلبلة في المبنى شرط أن يبقى الابن واقفًا في غرفة المعيشة بعيدًا عنهما حتى لا يصغي لحوارهما الخافت خفوت الماء في كوب زجاجي.

(كيف تعيّن هذا الشاب كاتمًا للأسرار الدفينة دون أن تعلمني بذلك؟ ثم من يضمن لي أنه لن يفشي شيئًا من لقاءاتنا السرية لسكان حيكم؟!)

(اطمئن يا مسيو ريشار، إنه من صنع يدي ولا يستطيع مخالفة أيّ أمرٍ لي، ثق بي)

(حسنًا، لكن لماذا استغنيت عن الشيخ بوجاوي في كلّ شيءٍ ولم تعد تعتمد عليه بتاتًا؟)

(بوجاوي لم يعد موثوقًا به بعد أن رأيته يلتقي سرًا بعضًا من أنصار جبهة التحرير الإرهابية خارج التكية؛ لذا رأيت أنه قد أصبح بطاقةً مكشوفةً لا بدّ من حرقها)

(حقًا؟!)

(بلى وربّ الكعبة، هذا ما حصل تمامًا)

(ما كان عليك أن تجرّده من جميع مناصبه القيادية في التكية، هكذا سيكشف أسرارنا كلها)

(لا تقلق! أنا أعرف بوجاوي جيدًا، صحيحٌ أنه عصبي ولا يقبل الغدر به، إلا أنه جبانٌ وليس لديه الجرأة لاسترداد حقه أو تهديد الغادرين أو الظالمين بقوته المزعومة، فاطمئن)

لم يكن علي يستمع لهما حينها، فقد كان منشغلًا وعيناه مشدوهتان بتفاصيل المنزل وديكوراته، فرغم صغر مساحته فهو منظمٌ وجميلٌ ودون إسرافٍ وفقير في زينته عكس بيتهم الشعبي الأندلسي الطراز.. وفجأةً يتحول نظره ٢٤ درجة مع اتساع حدقتي عينيه وانفتاح فمه بأقصى ما يمكن من فرط الدهشة وهو يرى أمامه فتاةً شابةً بديعة الجمال لم يخلق مثلها في الكون بعينيها العسليتين المائلتين إلى السواد وأنفها المستقيم استقامة حدّ السيف اليماني في مرونته وشعرها الأصهب البراق المعقوص

عقصة ذيل الفرس مع شعيراتٍ منسدلةٍ جوار الأذنين، وجسمٍ رشيقٍ رشاقة عصن البان من الصدر إلى القدمين مع نهدين ساحرين لم يتبرعما بعد دون أن يقلل من منظرهما وزادتهم التنورة الوردية تألقًا ورفعة.. تتقدم نحو علي بوجهها الجميل جمالًا طبيعيًا لم يشبها شائبة ولا تلطخت بالمساحيق أبدًا كما هي عادة نساء بلده؛ ولاسيما العجائز منهنّ، مستغربةً ومرتعشةً قليلًا من نظرته الشهوانية تلك حيث ما إن رآها حتى أجفل من مكانه وبلع ريقه وهي تسأله (مـ من أنت؟ ومن ماذا تريد مني؟!)

قالته بصوتٍ رقيقٍ جدًا جعله يعجز عن الكلام أو حتى الردّ على سؤالها..

عندما رأى الكولونيل ريشار يتقدم صوبهما ممتقع اللون من شدّة الغضب وهو ينهرها بشدّة..

(إيزابيل! ما الذي أتى بكِ إلى هنا؟! لمَ لا تعودين إلى غرفتكِ لاستذكار دروسك؟! ألم أنهك عندما يكون لديّ اجتماعٌ مع شخصٍ ما أن تدخلا أنتِ وأمك إلى غرفة الضيوف دون إذن؟!)

(بلى، ولكن كنتُ جائعةً، فأردت الذهاب إلى المطبخ حتى رأيت هذا الشاب يرمقني بنظراتٍ عجيبة)

ظلّ علي مسمرًا أمام جمالها الرباني الخالب للبه دون حراك أو ينبس بأدنى شفة أو يهز أذنيه صراخ والدها الغاضب العالي له، إلى أن أفاق منها تحت

لهيب كف والده الأيمن على رقبته.. وهي كذلك ظلت تنظر إليه؛ ذلك الشاب الأسود بعينيه الزرقاوين دون أن يفارق خيالها منذ تلك اللحظة.. كان اسمها إيزابيل، ولم يتجاوز عمرها الـ ٢٢ ربيعًا، أي أصغر منه بثلاثة أعوامٍ حينها حيث كانت تدرس في مدرسة سان ماري الثانوية الواقعة بالقرب من شارع جمعة داود القريب من جامعة الجزائر، وأصبحت تُعرف بعد الاستقلال بثانوية ٥ جويليه[٢٧].. كان والدها من مواليد مرسيليا أقرب مدينة فرنسية إلى الساحل الجزائري، وهو مجهول النسب، لا أحد يعرف من هما والداه، بمعنى آخر هو لقيط، ولأنه كذلك؛ ظلّ متنقلًا من ملجأ إلى ملجأ، ومن إصلاحية إلى إصلاحية لم يجنِ منها سوى العنف والحقد والكره، وهي أشياء انطبعت في شخصيته السادية التي لا تعرف التفاهم أو المرونة مع الناس؛ ولاسيما النساء اللاتي من بينهن زوجته ميشيل (والدة إيزابيل) اليهودية الديانة، والتي تعود أرومتها إلى يهود إسبانيا الفارين منها خلال فترة الاضطهاد هناك أيام حكم الملك فرناندو وزوجته الملكة إيزابيلا عام ١٥١٠م حيث تفرقوا في أنحاء أوروبا وتركيا وشمال إفريقيا ولتستقر عائلتها في بوردو جنوب غرب

[٢٧] جويليه أو Juliet تعني شهر يوليو بالفرنسية.

فرنسا وكان يتعاطى ربها (مسيو ليفيه) تجارة الملابس؛ ولاسيما النسائية منها ليصبح من أهم تجار هذا الحقل في المدينة وتصبح ماركته[٢٨] الحرف (L) المنتهي بسهم من أهم الماركات التجارية في هذا المجال، لكن لم يمنع هذا أن يحصل على تكريمهم وتشجيعهم؛ ولاسيما أنه أبلى بلاءً حسنًا في كثير من الجبهات القتالية في الهند الصينية وسوريا ولبنان وألمانيا وأخيرًا الجزائر خلال الحرب العالمية الثانية دفاعًا عن بلاده فرنسا كما يقول يترفع إلى رتبة كولونيل والتي نالها بعد مشاركته في قمع المتظاهرين بالقوة الشديدة خلال أحداث سطيف ١٩٤٥م، وهذا الأسلوب العدواني انعكس على زوجته والتي أحبّته حبّ العبادة وتزوّجته رغم معارضة أهلها لذلك باعتباره غير يهوديّ؛ حيث طغت وسامته وكلامه المعسول على قلبها الساذج عديم الخبرة في الحبّ، والذي لم تجده في بيتها المحاط بأسوار العادات والتقاليد الدينية الخاصة بأبناء ملتها لتصطدم بما رأته من شخصيته بعد الزواجِ عندما ألهب ظهرها بحزامه العسكري الخشن وقت ما يتقلب مزاجه بعد عودته من العمل أو من مهمةٍ سريةٍ وأمام ابنته فتصرخ من الخوف والرعب، فيهمّ بضربها صارخًا حتى تسكت، وما إن

[٢٨] الماركة: تعني العلامة التجارية.

تبكي من شدة الضرب حتى تتدخل أمها لحمايتها، وتكرر عليه نفس الكلام في كلّ يوم:

(إنها تبكي من شدّة الألم.. ألا تفهم؟! إنها طفلة صغيرة السنّ ضعيفة، لا تضربها!)

وسرعان ما يسكت ويسقط الحزام من يده، ويطبق في ذهولٍ تامٍ عندما يرى ابنته جاثيةً على ركبتيها في الأرض تبكي وتغطي وجهها تتوسل إليه ألّا يضربها، فإذا به تنتابه وتسري في جسده حالة هيستيرية تجعله يجثو الأرض وهو يصرخ ويبكي:

(لا تضربوني! أنا لم أفعل شيئًا.. لمَ تضربوني!) فتضمّه ميشيل بين جناحيها لتهدئته كطفلٍ خائفٍ ومرتعشٍ يتدثر بحضن أمه هربًا من البرد القارس.. ولأنّ هذا المشهد كان يتكرر أمامها حتى بعد وصلوها سن البلوغ ووجدت أن البيت أصبح جحيمًا لا يُطاق سعت منذ اللحظة الأولى إلى البحث عن أيّ شخصٍ ينقذها من سعيره ولو كان الشيطان بذاته؛ لذا تشبّثت مخيلتها بعلي الغرناطي ذلك الشاب الجزائري الأسود الشعر والأخضر العينين والأبيض البشرة؛ مما رسم في عقلها الباطن في اللاوعي صورةً رومانسيةً لفتى أحلامها الذي تنشده ظلّ يجتاح تفكيرها ليلًا نهارًا دون أن تنساه بتاتًا، فظلت تسعى خلفه بعيدًا عن أنظار والديها

لتقابله سرًا وتفضي عن مشاعرها الفياضة بالحبّ والوجد نحوه؛ لأنه هو أيضًا كان يرد عليها بالمثل ويتحين الفرصة ويترك التكية التي يعمل فيها مدرسًا لأصول الدين والفقه ومن وراء أبيه نحو المدرسة التي ترتادها إيزابيلا بعد أن يخلع جبته وعمامته بقميصٍ وبنطالٍ اشتراهما لهذا الغرض مستفيدًا من مكانته الرفيعة لدى سكان الحي وطلابه في التكية بصفته نائبًا لشيخ الطريقة التيجانية عندهم، ليأخذها إلى مكانٍ ناءٍ وبعيدٍ عن الناس، وكان عند الشاطئ الصخري القريب من الميناء القديم المعروف بمرسى سيدي فرج؛ حتى لا يشكّوا بهم إذا ما اجتمعوا في مكانٍ عامٍ؛ ولاسيما أن كلاهما لا يجيد لغة الآخر دون أن يمنعهم ذلك من التعبير عن أحاسيسهم ومشاعرهم المتبادلة بينهم بالإشارات واللمس والقُبَل وأحيانًا بالغناء وبالنظر إلى الشمس وسقوط أشعتها على البحر اللازوردي المتلألئ أمامهم، وكلّه يستغرق دقائق ليعودا إلى بيتيهما حتى لا يتأخرا عن أهليهما وحتى لا يثيرا من حولهم الشكوك.. وشيئًا فشيئًا تكرر وتزداد اللقاءات ويزول حاجز اللغة بينهما بعدما تعلّم لغة الآخر، فعلي يعلمها العربية والأمازيغية، وهي تعلّمه الفرنسية فيتجاذبان أطراف

الحديث والخواطر على وقع القهقهات الخفيفة المرتسمة على شفتيهما ورشفات الكابوتشينو[٢٩] وشطائر النقانق والجبن البراقة، يفترشان رمال الشاطئ الذهبية المسكونة بمشهد الأصيل البديع ساعة الغسق، ويرويان لبعضهما البعض همومها وأسرارهما الشخصية والخاصة، فلأول مرة يعرف أن أباها لقيطٌ مثله وأمّها يهودية الديانة.. في البداية غضب وتضايق وكاد أن يقاطعها ويتركها وهي تترجاه بالعودة إليها، لكن ما لبث أن تراجع عندما تذكّر ما كانت النسوة يتناقلنه في السوق حول قصة تبنّي والده له بعدما وجده في إحدى التكايا الموجودة بالحي مما أثار استغرابه واستنكاره فذهب ناحية أبيه ليستفسر عن ذلك، فنهره ووبخه فلاذ بالصمت فتصافى معها ونسي غضبه فورًا.. وكما كان التعارف بينهما سرعان انكشف سرّه أيضًا، فسعى كلا الأبوين السيد عبد العزيز تيماوي ومسيو ريشار دوبوفيه إلى منعهما من الالتقاء ببعضهما البعض أو التفكير بالزواج إذا رغبا بذلك مستخدمين كافة الأساليب السلمية كالنصيحة والتحذير والتوبيخ والتهديد بالغضب الأبويّ المبرر بالدين والعادات والتقاليد عليهما إذا تزوجا، ولتنتهي بالأساليب القمعية عندما فشلت

---

[٢٩] الكابوتشينو: قهوة إيطالية محمصة وممزوجة بالحليب المخفوق.

كافة المحاولات السابقة في الحدّ من رغبتهم المتأججة في صدورهم كحبسهما في البيت أو في أحد الغرف مانعين عنهما الأكل والشرب، أو تقييدهما كما حدث لإيزابيل عندما ربطها والدها وشدّها نحو السرير بقيودٍ حديديةٍ رصاصية اللون حول يديها وقدميها، ولكن دون جدوى؛ حيث لم تتحمل والدتها منظرها وهي تتألم وتصرخ من شدّة الجوع والألم، فقررت إنقاذها مما هي فيه من عذابٍ لتتلافاها وتنجدها من الموت المحقق في آخرِ لحظةٍ ولينقلها والدها إلى المستشفى العسكري (مستشفى ديدوش مراد) بسرّيةٍ تامّةٍ حتى لا يعرف أحدٌ ماذا جرى لها.. أما علي الغرناطي؛ فلم يكن حاله أسوأ منها، فرغم القمع الشديد الذي مارسه والده ضده حتى ينساها كالضرب بالعصا أو بالفلكة[٣٠] أو حبسه وتقييده بعرض السرير داخل القبو؛ إلا أنه تحمّل كل هذه الأساليب دون أن يتراجع عن موقفه؛ ولاسيما أن تدخل والدته لصالحه من أجل إنقاذه بالإضافة إلى خوفه من انتشار قصة حب ابنة الكولونيل الفرنسي خارج الحي وفي أوساط التكايا الأخرى التابعة للطرف المنافسة لطريقته جعلتها تبوء بالفشل؛ لذا فكّر بتدبير حادث اعتداء بالضرب عليه أثناء ذهابه

[٣٠] الفلكة: أسلوب عقابي موجود في البلدان العربية يتم فيه ضرب باطني القدمين للشخص المعاقب بالعصا.

لمقابلتها في مكانهما المعتاد مستعينًا بمجموعةٍ من حرافيش الحي بحيث تبدو الحادثة على أنها حادثة سرقة واغتصاب، ولم يكن يعرف أن عمله هذا سيقود ابنه إلى اكتشاف مستقبله الجديد والذي تسبب بذيوع صيته إلى الآن؛ ألا وهو احتراف الملاكمة، حيث كان علي إنسانًا وديعًا ولا يحب العنف وهشّ؛ لذا سرعان ما انهالت ضرباتهم عليه بقسوة دون أن يحرك ساكنًا قبل أن ينقذه من هذا الموقف قدوم رجلين اندفعا نحوهم بلمح البصر وقاما بتسديد لكماتٍ متتابعةٍ وخاطفةٍ أفقدت كثيرًا من المعتدين ومن بينهم زعيمهم توازنهم وأصابتهم بعاهاتٍ مستديمةٍ من شدة قوتها وسرعتها المذهلة التي لم يعتادوا عليها أو يعرفوها من قبل، فهم مجرّد أوباشٍ وصعاليك وبلطجية أو بورديل [٣١] حسبما عهدهم الناس في هذا الحيّ يتقطعون عليهم بالسرقة والنهب والضرب ويتحرّشون بنسائهم ويعتدون عليهنّ بالضرب أو الاغتصاب أحيانًا، وأمام هول ما حدث للتوّ فروا منهما فرار الغزلان من صياديها حاملين أجسادهم وجرحاهم وتاركين علي مرميًا على الأرض دون حراكٍ إلى أن قام الرجلان بحمله وبلسمة جروحه عبر خرقةٍ مبللةٍ بماء قنينة مياهٍ معدنية حيث رووا عطشه

[٣١] البورديل: مصطلح شعبي جزائري يطلق على الأحياء الموبوءة وسكانها الفاسدين والأشقياء.

منها، وبصعوبةٍ يفتح عينيه من شدّة الألم فيراهما ويكتشف أنهما ليسا سوى شقيقه بشير والمدرب والملاكم جلال تيصفاوط.

****

الفصل السادس:
أشواك المجد

ما إن استفاق واسترد وعيه عندما نقل إلى مستشفى قريب من منطقته من قبل بشير ومعه المدرب جلال جراء الحادث الذي تعرض له، لم يصدق أن شقيقه هو من أنقذه ممن اعتدوا عليه بعدما أثخن فيهم وأوقع الكثير منهم بسلسلة لكماته الصاروخية الخاطفة اتسمت بالمهارة مما يدل على احترافه في رياضة الملاكمة (والتي لم يكن يعرفها علي بتاتًا) وهذا أمر لم يعهده أحد عنه ولاسيما أنه كان رغم عصبيته يخشى قتال أو عراك أي شخص يعتدي عليه كشقيقه التوأم بسبب تدليل أمهما بالتبني الزائد لهما، لذا لم ينتظر علي أن يبادره بشير بالكلام من شدة شوقه ولهفته إليه حيث مرت ثلاثة أشهر على اختفائه:

(أين كنت طوال هذه الفترة غائب أيها الظالم لنا؟! أهكذا تظل بعيدًا كل هذه المدة بهذه الطريقة المريبة عندما هربت من المنزل خلسة وخفية دون علم والديك وعدم مراعاتك لمشاعر أخيك الذي جرحته بتصرفك هكذا؟)

(أما زلت تحمل عليّ ما حدث في ذلك اليوم؟ ظننتك قد نسيته تمامًا فنحن إخوة قبل كل شيء)

(الآن تذكرت أننا إخوة؟ بعد ماذا؟ لقد نسيتني بالمرة وتركتني أواجه المصاعب لوحدي في التكية وفي البيت مع أبي والشيخ بوجاوي ومع الناس أجمع وتنكرت للعهد الذي قطعناه بيننا منذ أن كنا في سن الثامنة من عمرنا عندما كنا نلعب بالقرب من نافورة حوش بيتنا أن نكون يدًا واحدة بقوة حزمة عصي واحدة في مواجهة أي مشكلة تواجهنا، وأنت تعرف بأن عظمي طري وبالكاد تحمل كثيرًا من العقبات والمشاق خلال دراستي وعملي في التكية ولم أصدق كيف تجاوزتا بنجاح وصعوبة؟!)

(وأنا كذلك واجهت مثل ظروفك تلك وبل أسوأ منها وصلت إلى حد أني قضيت ليالي بأكملها في الشارع بلا مأوى)

(بلا مأوى؟! لهذه الدرجة؟!)

(وأكثر!)

(أخي، ألمح في عينيك بوادر قصة حزينة لازالت تفاصيلها محفورة في حدقتيهما، إيه؟!)

(بل أكثر من حزينة)

وبدأ بشير يروي له قصته المؤلمة لحظة هروبه من البيت حتى التقائه المدرب جلال تيصفاوط وتلقيه على يديه أصول الملاكمة المليئة بأحداث وأحزان وأفراح ومشاق وعقبات واجهته خلالها صرف جميع نقوده التي ادّخرها خلال مراهقته متنقلًا بين عدة لوكندات وبنسيونات شعبية في كافة الأحياء المجاورة لهم ونومه على أرصفه شوارعها الجحود تحت وطأة البرد القارس ومطاردة رجال الدرك الفرنسيين له، عدا ذلك من اعتداءات تعرض لها من قبل الأوباش الصعاليك هناك قبل أن ينقذه المدرب جلال من بطشهم وعدوانهم والجوع والمرض اللذان استبدا بجسده الضئيل الضعيف ليضمه بين ذراعيه نحو بيته المجاور لنادي مولوديه تيزي أوزو للملاكمة في بن عكنون بعدما علم أن أمه بالتبني السيدة حورية هي ابنة عمه وهناك تعرف على مدربه جيدًا، الأرمل المنقطع العقب حيث توفيت زوجته في حادث سيارة على الطريق السريع بين الجزائر العاصمة وتيبازة لتنتقل إلى جوار ربها في ريعان شبابها ويترك رحيلها أثرًا عميقًا في نفسه جعلته لا يفكر بالزواج من امرأة أخرى غيرها لتنجب له ولي العهد ولدًا كان أم بنتًا حيث تمنى هذا الأمنية منها قبل وفاتها، فأكثر من العمل والتدريب في النادي حتى ينسى آلامه وأحزانه ويتخرج على يديه العديد من الملاكمين الجزائريين والفرنسيين والأفارقة

التي طغت شهرتهم حلبات الملاكمة سواءٌ على مستوى بلدانهم أم العالم كعمار ميمون والعربي سحنون من الجزائر وآلان سوتيه من فرنسا وأبو بكر تامادا من مالي وعلي هنجو من السنغال وغيرهم، كيف ولا وهو الحاصل على وزن الذبابة عالميًا عام ١٩٣٢م بعد تغلبه على الأمريكي هنري داونون المصنف الأول فيها تتويجًا لمسيرة حافلة بالإنجازات العظيمة له رغم ما تخللتها من بضعة هزائم كبطولة مستعمرة الجزائر للملاكمة عام ١٩١١م وصولًا إلى بطولة أوروبا للملاكمة في وزن الذبابة عام ١٩٢٧م ويقرر في منتصف ١٩٣٤م الاعتزال بعد مباراتين خاضهما بعد حصوله على اللقب العالمي وانتهت إحداهما بخسارته والأخرى بفوزه ليتفرغ للتدريب بعدها دون أن يدخل نفسه في متاهات أو أمور أخرى كادت أن توقعه في مشاكل كتلك التي حدثت لحظة اندلاع الثورة وتعرض حينها إلى مضايقات واعتداءات من قبل الثوار والمستعمرين خلال معركة الجزائر[٣٢]، فرغم تعلق قلبه بالثورة حيث تمثل بالنسبة له بارقة أمل لتحرير بلاده، إلا أنه فضل الحياد التام عما يجري، فلم ينحاز لأي من الطرفين فهو دائمًا بطبيعته يكره السياسة والقتال

---

[٣٢] معركة الجزائر: هي حرب عصابات خاضها الثوار ضد المستعمرين دارت رحاها في أحياء الجزائر العاصمة عام ١٩٦١م.

ويعتبرهما أشياءً قذرةً تفقد البشر إنسانيتهم وكرامتهم، ومع ذلك لم يعفيه موقفه هذا من غضبة أعضاء جبهة التحرير عليه ولاسيما من فئة الشبيبة التابعة لها حيث كان العديد من أفرادها أن لم نقل غالبيتهم تلاميذًا له في ناديه، فقد رأوا هذا التصرف من مدربهم خيانة وعار عليه أفقد هيبته أمامهم فبدأوا بتحطيم النادي وممتلكاته والاعتداء على صاحبها ثم مصادرتها بعد الاستقلال عام ١٩٦٤م ضمن حملة التأميم المنسجمة مع نهج الحكم الاشتراكي آنذاك حتى تم العبث بها من قبلهم لعدم خبرتهم في إدارتها فتحول في ١٩٧٧م إلى مقهى تابع لوزارة الشباب والرياضة، المهم أن السيد جلال قرر الرحيل إلى فرنسا بعد مصادرة ناديه الذي أسسه من الصفر بعرق جبينه بمنتهى البساطة ليمكث فيها ٩ سنوات لم يستطع تحمل العيش فيها بسبب الوضع الاقتصادي المتأزم منذ قضية حظر النفط العربي عام ١٩٧٣م لينعكس على أحوال المواطنين هناك ويتحول إلى موجة غضب عنصرية عارمة تجاه الأجانب ولاسيما العرب القادمين من شمال إفريقيا ليغادرها مرة أخرى إلى الجزائر في ١٩٧٥م عسى الأوضاع تغيرت هناك بعد حلول الرئيس هواري بومدين محل نظيره أحمد بن بللا إثر انقلابه العسكري عام ١٩٦٥م فلم يحدث شيء، فمكث شهرين في وهران عند أحد أقاربه لأمه خاصة بعدما علم بوفاة

ابنة عمه حورية قبل سنتين حزنا على زوجها الذي مات كمدًا في بيته بعد مصادرة أملاكه ومناصبه في التكية المقفلة من قبل السلطات الرسمية بالشمع الأحمر بتهمة التواطؤ مع الاستعمار الفرنسي، حتى أتته رسالة من تلميذه الفرنسي السابق آلان سوتيه ومازال حينها المصنف الثالث في وزن الذبابة في الملاكمة فدعاه إلى العيش والعمل بفلوريدا في الولايات المتحدة الأمريكية حيث يقيم بعدما تابع أخباره الأليمة عبر الصحف الفرنسية المنشورة عندهم، فلبى الدعوة بسرعة البرق حتى لم ينتظر توديع قريبه وعائلته على أول طائرة متجهة إلى هناك فأصبح مديرًا ومالكًا لناديه (la gloire) بعد وفاته في إحدى المباريات أمام الفنزويلي روبرتو بلانكا وتوصيته قبل ذلك بهذا المبنى لمدربه الذي سرعان ما إن أصبح في عهده أشهر ناد للملاكمة في أمريكا قاطبة ودرب فيه العديد من نجومها في أنحاء العالم وأخرهم المكسيكي خافيير أورتيغا والذي هزم كارلوس لامبيدوسا في أواخر ١٩٧٥م، بعدما سمع علي قصة أخيه المثيرة للغرابة والحزن في آن واحد استطاع استيعابها بصعوبة، وما زاد من استغرابه وتعجبه أيضًا أن وجود بشير ومدربه جلال لحظة الاعتداء عليه كان بمحض الصدفة ولم يعلما بما حدث، حيث كانا في طريقهما نحو النادي لا أكثر وقد ساعداه بعد تضميد جراحه على العودة إلى البيت دون أن

يدخلا إليه تحت رفض بشير الملح لذلك رغم ترجي علي له بمقابلة والدته، فمازالت آثار سياط أبيه على جسده الضئيل تنكأ جراحها في نفسه حتى بعد خروجه من الجزائر خلف أخيه علي وزوجته فيما بعد إيزابيل عام ١٩٦٠م قبل أن يعود إليها ويزور والدته قبل وفاتها بشهرين وبعدما أقنعه علي برؤيتها، وعندها تعانق الاثنان عناقًا حارًا لم تطفئ حرارته دموعهما الغزيرة غزارة المطر خلال فصل الشتاء لأول مرة، كل منهما حاول عبثًا الاعتذار للآخر فلقد ظل حاجز الكرامة والماضي الجريح يقض مضجعهما ويفصل بينهما حتى بعد أن عرف بأنه وشقيقه علي ولدان لقيطان لأبوين بالتبني عثر عليهما بالقرب من إحدى التكايا كما رواها لهما والدهما الشيخ عبدالعزيز وهو يحتضر وقبل أن يلقى ربه في منتصف يوليو ١٩٧٣م.

المهم أن بشير ومدربه ودعاه بالسلامة وقد وعدهما أن يأتي غدًا إلى النادي ليتعرف عليه ويتدرب فيه، وعندما دخل إلى البيت، رأته والدته بهذه الحال صارخة:

(علي! ماذا حدث لك يا بني؟! من الذي ضربك هذا الضرب المبرح؟!)

(لم يضربني أحد يا أماه، لقد تعثرت في درجات السلالم المؤدية نحو حي باب الزواو فنقلوني إلى المستشفى وعولجت وأتيت إلى هنا وأنا على ما يرام)

(يا الله، ألا تنتبه وأنت تسير؟ لا تكررها مرة أخرى، مفهوم؟ هذه الطريق خطرة جدًا، لذا يجب أن تأخذ حذرك فيها يا بني)

(حاضر يا أمي)

(والآن اذهب إلى غرفتك لتستريحَ هناك ريثما أعد لك طعام الغداء، هيا يا حبيبي)

ولج إلى غرفته منتشيًا ومسرورًا لدرجة أنه أغلق الباب بسرعة لئلا تتبخر لحظة النشوة تلك من مخيلته ويعكر صفوه أي شيء يزعجه حينها، لقد كان ما جرى لحظة فارقة ستحدد له فيما بعد مسار ومستقبل حياته عبر طرقه أبواب عالم جديد عليه ألا وهو عالم الملاكمة والذي رأى فيه طريقًا يحقق فيه ذاته وقوته مستمدًا منه روح الحرية والتمرد قبل أن يمقتها ثم يعتزلها إلى الأبد في بداية الثمانينات.

ومن شدة تحرقه لممارستها، لم يصبر حتى تندمل جراحه جراء ما حدث له البارحة، بل أزمع منذ بزوغ صباح اليوم التالي على الذهاب إلى نادي مولودية تيزي أوزو حيث شقيقه يكون والذي استقبله بحفاوة بالغة

لحظة دخوله مندهشًا مما رآه من جد واجتهاد لدى اللاعبين خلال مثابرتهم في التدريب بكل تفان وإخلاص دون كلل أو ملل يثبط عزيمتهم ولا حتى رذاذ عرقهم المتصاعدة من أجسادهم المنتفخة من شدة الضرب على الأكياس الرملية المعلقة أو القفز على الحبال أو روائحهم التي تعبق بأرجاء المكان، لكن هذا لم يثنيه عما يرغب فاستبدل ملابسه التقليدية الخاصة بشيوخ الزوايا والتي لم يأبه أي أحد من الحاضرين بالنظر إليها لانشغالهم بالتدريب بأخرى رياضية واندفع يتدرب بحماسة مفرطة أذهلت الجميع وغيرت رأى كثير منهم فيه حيث استمر على هذه الهمة مدة ثلاثة أشهر يتعلم أصول الملاكمة دون أن يسلم جسده من اللكمات والهنات إلى أن أتقنها وأحترفها فعليًا بعد نزاله مع واحد من أهم أبطال النادي والمنطقة المحيطة به (علال كيراش) وانتصاره عليه في الجولة الثالثة وبالضربة القاضية عام ١٩٧٥م.

الفصل السابع:
إيزابيل

(وماذا عن أمي؟ هل الملاكمة أنستك إياها؟)

هكذا سأل عماد باستفزاز بالغ والده دون أن تستثار أعصابه على الفور ويرد بسرعة مقاطعًا إياه (ومن قال لك أنني في غمرة انسجامي بالملاكمة نسيتها أو تنكرت لها أو تجاهلتها تمامًا؟ كنت لا أزال وقتها غارقًا في هواها وصورتها لا تفارق مخيلتي، بل أن ولوجي إلى عالم الملاكمة زادني دفعة نحو التمسك بحبي لها، فبعض من الذين يتدربون معي إما يعملون في المستشفى العسكري حيث تتعالج إيزابيل حبيبته وإما لديهم نزلاءٌ مقيمون فيه وعبرهم عرفت بحالتها الناتجة عن الضرب والتجويع أو أنها تجاوزت مرحلة الخطر، ولقد دبر لي أحدهم طريقة للتسلل إليها وهي قيد الحراسة المشددة المفروضة من قبل والدها، على فكرة كان الرجل من أتباع جبهة التحرير ولم أعرف حقيقته تلك إلا بعدما ساعدني من الهروب من سجن بربروس الرهيب[٣٣] عندما فشلت محاولة تهريبها من المستشفى)

---

[٣٣] سجن بربروس: من سجون الاستعمار الفرنسي في الجزائر العاصمة وكان يزج فيها المناضلين والثوار ويتم إعدامهم فيه.

(وما سبب الفشل؟) سألته عبلة.

(عندما قمت والرجل المرافق لي بضرب الحارسين وإفقادهما الوعي دخلت إليها وكانت في حالة يرثى لها، فعيناها المسودتان من شدة الجوع مما جعلها في غيبوبة تامة لم تفق منها بعد، حاولت إيقاظها إذ بدأت تفتحهما بصعوبة وما إن ظهرت ملامحي أمامها حتى سرت الرعشة في أرجاء جسدها المنهك وسرعان مازالت الألم منه وتردد إسمي بصوت عال قبل إسكاتها وأحملها بين ذراعي حيث لم تستطع الوقوف بتاتًا، وضعتها على سرير متحرك وأخرج بها وصاحبي ونحن لا نزال نرتدي ملابس الممرضين بهدوء نتوجس حذرًا من أي قادم نحونا وبدأنا نقترب من ممر السلالم الخلفي قبل أن تكشفنا ممرضة مناوبة بإحدى الغرف حينما سمعت أنات إيزابيل الحادة وهي مارة بهم وحاولت إيقافنا فقمت بضربها من الخلف ويصل صراخها إلى مسامع الجنود ويتتبعوه إلى أن رأوها فاقدة الوعي ولمحونا نهرب حاملين إيزابيل معنا وعندما حاولوا إمساكنا دفعنا بقوة السرير إليهم فأوقعهم على الأرض، وقتها تمكنا من الخروج ولكن للأسف السيارة التي أتينا بها تم ضبطها من قبل رجال الدرك وحاولنا التسلل بعيدًا عن أنظارهم من البوابة الأخرى للمستشفى لنتفاجأ بوجود الحراس عليها وقد أرادوا الإمساك بنا

فضربت أحدهم في بطنه وهو يحاول شد إيزابيل من شعرها وهممت بالفرار معها لكني سقطت جريحًا جراء رصاصةٍ اخترقت ساقي من أحد المطاردين فلم يستطع كلانا الحركة، أما صاحبي فلقد استطاع الإفلات من قبضتهم مخترقًا الحوش ومتسلقًا السور بسرعة)

(وماذا حدث بعد ذلك؟)

(بعدما اعتقلوني وإيزابيل قادونا إلى والدها الكولونيل ريشار دوبوفيه حيث دفعه الغضب إلى ركلي بقدمه على مكان الجرح وابنته تصرخ وتبكي وتدعوه أن يتوقف فيقوم بضربها وتوبيخها ويأمر الجنود بأخذي إلى سجن مخفر ديدوش مراد ريثما يرى رأيه بشأني)

لم ينس علي كيف لفق الكولونيل ريشار تهمة الإرهاب ضده وقدمه إلى محكمة عسكرية شبه قانونية خالية تمامًا من أي ضمانات عادلة لنزاهتها وتصدر بحقه حكمًا بالإعدام كما فعلت مع من سبقوه ثوارًا ومناضلين ورجالًا ونساءً فصلت رؤوسهم البريئة عن أجسادهم الطاهرة تحت سكين المقصلة المتوحشة بادعاءات وتهمٍ واهيةٍ لا أساس لها من الصحة، وحينما اقتادوه إلى إحدى الزنازين عابرين رواقًا من أروقة السجن المظلمة والشبيهة بعلب كبريت حديدية فارغة، وكانت مكدسة بمساجين من مختلف الأعمار والتهم والأعراق والمناطق، شباب وشيوخ، ثوار

ومتمردين، لصوصًا وأوباش وقطاع طرق، أمازيغ وعرب وطوارق وسنة وإباضية من الشرق والغرب والوسط والجنوب، يتزاحمون على رقعة ضيقة وعند النوم ينام كل واحد منهم على جسد الآخر، لم يشغل باله بذلك الأمر وهو يصوب عينيه من خلال القضبان الرصاصية اللون متشبثًا بها بكلتا يديه نحو الأعلى حابسًا دموعه الحزينة على مصير حبيبته حبيسة والدها المتعجرف بعدما زج بها في قبو منزله السفلي بظلمته الحالكة السواد وهددها بقتلها وشنقها بداخله إن حاولت الفرار ريثما يعد العدة لتزويجها قسرًا بأحد ضباطه المغادرين إلى فرنسا دون أن تحرك أمها ساكنًا وتجرؤ على مقارعة ظلم زوجها لها بعدما أهدر شبابها وصحتها لتصير عظمًا بلا لحم، وسرعان ما أيقظته من شروده فجأة هزة قوية على كتفه من شخص ضخم الجثة بحجم دب أسمر تملأ الندوب والوشوم وجهه من شدة العراك قائلًا له:

(هل ستظل هكذا على هذه الحالة؟)

(وما شأنك أنت؟)

(عندما يتحدث الزعيم معك يجب أن تلتفت إليه وتسمعه، أتفهم؟)

(كأنني رأيت هذا الوجه من قبل، لكن أين؟)

(لا تراوغ يا هذا، أجب عن سؤالي بلا تأخير)

(قلت لك هذا ليس من شأنك)

(بل من شأني)

ويسقطه بضربة قوية على صدغه الأيسر بالأرض، وعندها يدرك بأنه زعيم مجموعة الصعاليك التي اعتدت عليه في ذلك اليوم، فانتفض عليه وسدد له لكمة ثلاثية ببطنه ورأسه وصدره ليقع مغشيًا عليه ويندفع أتباعه للانقضاض عليه، إلا أنهم سرعان ما يتساقطون ويرتعشون جراء سيل من لكماته النارية منبهرين من مهاراته القتالية الغير المألوفة بالنسبة لهم والتي لم يجدوها فيها عند ضربهم له في تلك المرة، بل إن بقية المساجين أصابهم الرعب وصمتوا صمت الصخور كان على رؤوسهم ثم التفت إلى كبيرهم الممدد بالقاع وداس بقدمه على صدره سائلًا إياه عما دفعهم على فعل ذلك به وتحت تهديده يخبره بأن شخصًا يدعى الشيخ عبدالعزيز تيماوي تعاقد معهم مقابل مبلغ من المال لمنعه من لقاء إيزابيل وأوعز إليهم بضربة دون قتله أو إصابته بعاهة مستديمة، في البداية كذب ولم يصدق ما قاله الرجل جملة وتفصيلًا إلى أن أكد وأثبت أتباعه كلامه، وبعرضهم ما تبقى لهم من نقود المهمة تلك وساعتها لم يصدق ما سمعه عن أبيه ومؤامرته ضده وحبيبته حتى ثارت ثائرته وانطلق يصرخ ويزمجر زمجرة أسد جريح مغدور من أقرب الناس إليه في أرجاء السجن من

والده قدوته وقنديله المنير لطريقه نحو الحياة سرعان ما انطفأت جذوتها من مخيلته في تلكم اللحظات وتتحول خلال ٢٤ درجة إلى حالة غضب وكره دائم له، حتى بعد مجيئه وحورية لرؤية ولديهما في الزنزانة المحجوز فيها وبعدما استطاع بعلاقاته الوطيدة بالسلطات الاستعمارية أن يلغي حكم الإعدام ويستبدله بالسجن لمدة ثلاث سنوات يرفض أن يحييه أو يحضنه مما يثير استغراب الأخير ويدخل مع والده في جدال عنيف ليواجهه الأول بلقائه بالعصابة التي اعتدت عليه وتفاصيل الحديث معهم لتصاب فتجهش بالبكاء حرقة ومرارة مما اقترفه زوجها بحق ولدها قبل أن يسكتها ويأمرها بالرحيل مفارقًا علي فراقًا أبديًا بعد إصراره على الزواج من إيزابيل رغم كل شيء.

ويواصل علي مسيرة قطار ذكرياته المثخنة بالجراح الغائرة والآمال العريضة عندما استطاع الفرار من السجن قبل أن يتم السنة الثانية من محكوميته عبر الشخص الذي كان معه أثناء عملية تهريب إيزابيل من المستشفى بطريقة ذكية جعلت الشرطة تتيه خلال عملية البحث عنهما دون أن تعثر على وجود لهما وكان يدعى (عميروش) وعارف بالأماكن والمسالك المخصصة للاختباء عن أعين المستعمرين، فمكثوا في حمام أندلسي قديم بحي القصبة صاحبه قريب له، ثم هناك يلتقون ببشير الذي

خطط لعملية تهريب أخيه ويتعانقا عناقًا أخويًا حارًا حيث كان الأول قلقًا على الثاني ولم يذق النوم أبدًا طوال النهار، ولاسيما أن الشرطة اقتحمت النادي وعبثت بممتلكاته بحثًا عن أخيه إلى جانب معرفته بتورط أبيهما في حادثة الاعتداء التي وقعت ضد علي حتى لا يلتقى بإيزابيل حبيبته والتي من أجلها أبي أن يستجيب لرغبة أخيه بشير بالسفر إلى فرنسا من دونها لذا أصر على تحريرها من قيد والدها حيث أعدا خطة محكمة لذلك، وكيف استطاعا الوصول إلى المنزل ومن ثم إلى القبو التي تحتجز فيه إيزابيل بعدما سمعا بكائها وأنينها ويفتحاه بالقوة ليجداها في حالة يرثى لها لا تستطيع الكلام والحركة وتلهث لهاث قطة يخنقها العطش، فيقوم علي بحملها على صدره وينطلق نحو الباب، إلا أن الكولونيل ريشار يهرع صوبه ويطلق الرصاص عليه ويخترق ذراعه ليقع على الأرض تحت وطأة الألم وحاول بشير إنقاذه، فباغته الكولونيل برصاصة أصابت ظاهر يده، وكيف أن الأخير ما إن وجه فوهة مسدسه صوب رأس ابنته ليقتلها حتى يتلقى طعنة قاتلة تشق ظهره من سكينة مطبخ تحملها زوجته وهي تجرجر قدميها الواهنتين نحوه فيرديها قتيلة بطلقة استقرت في قلبها فيسقطا ويغرقا معًا في دمائهما الملطخة بالهموم والعقد، وأمام هذا المنظر المرعب لحظتها تندلع ولولة عالية من فم إيزابيل

تهز أرجاء البيت وتصل إلى بقية الشقق المجاورة حتى بعد محاولة علي إسكاتها وهو يسرع بحملها عبر السلالم رغم جرحه الغائر في ذراعه الأيمن يساعده في ذلك شقيقه بشير حتى تمكنهم من الهرب من هول الصدمة التي لحقت بها حيث أصبحت خلال دقائق يتيمة ومنكسرة الفؤاد مما حدث أمامها لوالديها نتيجة انهيار حبهما الخالد والقائم على أساس هش.

مرت ثلاثة أشهر على تلك الحادثة الأليمة المروعة حيث لازالت محفورة في مخيلة إيزابيل تسرح بنظرها نحو عنان السماء مرسيليا وهي جالسة على شرفة شقتها الصغيرة بحجم علبة الكبريت والتي اشتراها زوجها علي من مالكها وهو جزائري من وادي ميزاب[٣٤] يعمل في تجارة الأدوات المكتبية ومن قبل كانا يقطنان فيها بالإيجار مقابل مبلغ ضئيل من المال بحدود ال ٣,٠٠٠ فرنك حيث قرر تصفيه أعماله هنا والانتقال إلى باريس، أصبح اسمها عائشة بعد اعتناقها الإسلام دون أن تعرف عنه شيئا ولاسيما أنه تزوجها قبل سفرهما إلى فرنسا على يد كاتب عدل[٣٥] يعمل بمحكمة الجزائر العاصمة وصديق مدربه جلال وهي على ملتها

---

[٣٤] منطقة تقع جنوب الجزائر وموزعة بين ولايتي غرداية والأغواط.

[٣٥] مصطلح يطلقه الفرنسيون على مسجل العقود.

الأولى المسيحية، فحبها وعشقها الجامح له دفعها إلى تغيير دينها رغم اعتراضه على ذلك، فلقد صار بالنسبة لها عائلتها الوحيدة لا تستغني عنه بعدما أضحت يتيمة ووحيدة بلا أهل بعد وفاة والديها ومن ثم جديها من ناحية الأم تحت أنقاض محل الملابس الخاص بهما إثر حريق شب فيه عام ١٩٥٠م حيث ظللت وفية ومخلصة له في السراء والضراء حتى عندما كان يوبخها أو يضربها أو يتشاجر معها فكانت تتحمله وتراضيه مراضاة الأم الحنون لطفلها الصغير وإن أسأ إليها لم تفكر لحظة واحدة أن تتركه أو تطلب الطلاق منه فقد أضحى قدرها المحتوم أن تكون غارقة في حبه حتى النخاع وإلى الأبد ولاسيما أنه ظل مخلص لها ولم يتزوج عليها قط وكذلك إنجابها لابنيهما عماد ظلت تحدق إلى سماء المدينة الممتدة أمام ناظريها ممسكة بكوب القهوة الساخن بلا توقف تهز جسده الضئيل الطري العود يمينًا وشمالًا على أنغام أغاني إيديث بياف[٣٦] بعدما أنهت ترتيب وتنظيف الشقة وإعداد الغداء منتظرة إياه ريثما يعود من عمله في محل للفطائر في شارع ٢٠ والذي يبعد عنها حوالي ١٠ دقائق من المشي بعد أن صرف ما بحوزته من مال ادّخره خلال توليه مشيخة التكية نيابة

[٣٦] مطربة فرنسية مشهورة ذاع صيتها خلال فترة الستينيات.

عن والده منذ أن نجح شقيقه بشير في تهريبهما ودسهما في إحدى سفن الشحن الصغيرة ال cargo ووسط دوران الآلات في غرفة المحركات بين عماله البائسين (ومعظمهم من الجزائريين) تنبثق رائحة الفحم الرديء من أنوفهم المعفرة بعقبه العفن حتى تلك اللحظة مرا خلالها بصعوبات ومشاق وتجارب مهولة لم تخطر على بالهما ولم يعهداها من قبل ولاسيما أنهما كانا مدللين جدًا ألفا حياة الدعة والرفاهية لا عيشة الضنك والشقاء، فكم مرة افترشا الأرض حيث لم يجدا مكانًا يأوون إليه فندقًا كان أم بنسيونًا[٣٧] بسبب غلاء أسعارها الخيالي ورفض معظمها لاستقبال أي شخص يأتي من الجزائر بسبب مداهمة الشرطة لها من أجل هذا الغرض في تلكم الفترة وتعرضهما لمطاردة رجال إدارة الهجرة لهما ثم اختبائهما عن أعينهم في إحدى الأزقة أو الحارات المكتظة بالمهمشين والمهاجرين القادمين من شمال إفريقيا ومالي وعاشا في إحدى الشقق الجماعية والمملوكة لصاحب حانة مهاجر من الجزائر بعد دمر مستودع الأجهزة الكهربائية بانفجار عبوة ناسفة فيه خلال معركة الجزائر بين

---

[٣٧] البنسيون: كلمة فرنسية تعني الفنادق العائلية أو الفنادق المملوكة لعائلات مقيمة في مسقط رأسها أو محل إقامتها أو سكنها حيث يقدم خدمات المبيت والإقامة للنزلاء دون خدمة الطعام حيث يتناول نزلائهم الإفطار والغداء والعشاء خارجه.

الثوار والمستعمرين، وكان يقبع فيها بالإضافة إليهما حوالي عشرين شخصًا من كلا الجنسين يتقاسمون معًا غرفة معيشة ودورة مياه واحدة لا يوجد سرير بها فينامون على الأرض عدا مشكلة البحث عن سكن أو شقة أو حتى ستوديو (شقة صغيرة جدًا) لصعوبة توافرها في مرسيليا وفرنسا بشكل عام فيعود إلى مسكنهما تحت رحمة صاحبه وقاطنيه وهم يصدحون في أرجائه بالجاز والملوف البربريين القادم من بلاد القبائل وبجاية والموسيقى الإفريقية وتلهب أسماعهم ومشاعرهم بالرقص والتصفيق الحار علهم ينسوا البؤس والغربة منذ سنين عديدة حيث لم تمحها رياح الاستقلال والتحرر وقد هبت على بلدانهم من نير بلد المهجر مما زاد في وضعهم سوءا أكثر من ذي قبل.

****

الفصل الثامن:
ضريبة الشهرة

أثناء سماعه لحديث والده، أجهش عماد بالبكاء مما أثار استفهام علي وعبلة من ذلك:

(لما تبك يا بني؟! ألهذا الحد أحزنك ما قلته لتو؟!)

(جدًا، لم أكن أعرف أنك أحببت أمي كل هذا الحب لدرجة العبادة، لذا أعذرني يا أبي عن أية إساءةٍ أو سوء ظن بدر مني نحوك، أنا آسف)

(لا عليك، حتى تعرف مقدار قيمة أمك بالنسبة لي، لقد كانت أعظم وأجمل وأروع وأحن امرأة رأيتها في حياتي، حيث كانت النسيم الذي ينعش فؤادي والمصباح الذي ينير طريقي وحياتي والصدر الذي يحنو علي ويلملم جراحاتي وانهزاماتي وانكساراتي خلال احترافي الملاكمة لتحوله إلى أمل متجدد يبعث في نفسي السرور والثقة، كثيرًا ما كانت تصبر على زلاتي وتوبيخي وأخطائي وإساءاتي لها صبر أيوب على المكاره إلى أن طواها الموت بتلابيبه أمامي بعدما افترس رئتها السرطان اللعين فتنطفئ عيناي المضيئتان والمفعمتان بالأمل وتصبح حياتي في ظلام حالك السواد ولا تريان سوى الموت ولا شيء سوى الموت، اهيء اهيء)

(لا تقل هذا يا أبي، أطال الله في عمرك وجعلك تعيش حتى ترى زوجتي وأولادي)

(إن شاء الله، لكن هذه هي الحقيقة، ولاسيما أن وفاتها المأساوي أتى بعد اعتزالي الملاكمة مما زاد في الشعور باليأس والإحباط أكثر)

(على ذكر الملاكمة يا أستاذ علي، ذكرت في إحدى المقابلات الصحفية التي أجرتها معك (le point) الفرنسية بأن بدايتك الحقيقية كانت في جمانيزيم[٣٨] لومير أهذا صحيح؟)

(بلى، هذا صحيح، فقد أعطاني مدربي السيد جلال تيصفاوط عنوانه والذي يديره صديقه مسيو باتريك لومير عبر شقيقي بشير وقد أتى إلى فرنسا بعد شهر من قدومنا إليها، وهو من الرعيل الأول لمدربي الملاكمة في فرنسا ومن يتدرب على يديه يصبح محترفًا وينضم إلى بطولة فرنسا المحترفين في الملاكمة)

(حقًا أستاذ علي؟)

(بالتأكيد)

---

[٣٨] كلمة فرنسية تعني صالة الألعاب.

ظن علي في البداية أن الوضع في الجمانيزيم مشابه لنظيره في نادي مولودية تيزي أوزو، لكن سرعان ما انجلى له عكس ذلك تمامًا، فقد أرهقه مسيو لوميير بالتمارين الكثيرة ونادرًا ما كان يستريح سوى سويعات قليلة عند تناول الطعام والاستحمام، إلى جانب تعرضه المضايقات ومماحكات من قبل بقية الملاكمين سواءٌ الفرنسيين الذين يشعرون بالضيق من ازدياد عدد الأجانب في الجمانيزيم أو نظرائه من المهاجرين يصارعون بعضهم البعض ولو بأساليب دنيئة من أجل الوصول إلى البطولة المذكورة آنفًا، ومن بينهم من نأى بنفسه في الخوض في غمار ذلك مكتفيًا بما يناله من أموال المراهنات التي تجري في حلبات ملاكمة الشوارع المخالفة للقانون حيث يسمح للمنازلين باستخدام الأساليب المحرمة في نظيرتها الرسمية كالضرب تحت الحزام وعلى الصدر وفوق الرأس استخدام الكوع.. الخ وكل هذا يتم تحت أنظار مدربه صاحب الجمانيزيم دون أن يحرك ساكنًا حيث رأى في ذلك جلبًا لمزيد من المتدربين الشباب الساعين لولوج عالم الملاكمة محاولًا بذلك استعادة ما فقده النادي من شهرته وأمجاده السابقة خلال النصف الأول من القرن العشرين ولاسيما أن الفقر والبطالة يدفع الكثير منهم إلى ذلك لتحقيق الشهرة وتحسين وضعهم المادي وأخذ حقهم بالقوة من أي شخص مهما كانت قوته أو وزنه، وأحيانًا كان

يتدرب حتى ساعة متأخرة من الليل بعد خروجه من البيت عصرًا خلال نهاية الأسبوع مما جعل زوجته في حالة قلق دائم وقتها لكن ينتهي كل هذا بعد سنتين عندما أضحي ضمن ثلاثة متأهلين عنه إلى بطولة فرنسا الوطنية للمحترفين إلى جانب مراد نبعة من الجزائر والملقب فيما بعد بماكينة اللكمات وكالوني من السنغال بعد فوزه الصعب والساحق وبالضربة القاضية في الجولة العاشرة ضد عدوه اللدود والذي كان وشلته ينغصون حياته في الجمانيزيم الباسكي الأصل ريكاردو ماليتكيا وبانتقاله إلى باريس عام ١٩٦٤م انتقل إلى عالم جديد وحياة جديدة فمن ستوديو متواضع بغرفتين وصالة معيشة إلى شقة واسعة ثلاث غرف خصص إحداها للمولود الجديد بالحي اللاتيني إضافة إلى حمامين فيها، ومن مجرد محاسب في محل بسيط في محل للفطائر في مرسيليا إلى أشهر ملاكم محترف على امتداد فرنسا طولًا وعرضًا إثر نيله بطولتها الوطنية للمحترفين عام ١٩٦٧م بعد نزالات طاحنة مع أربعة ملاكمين من مقاطعات وأقاليم وأندية من أرجاء البلاد وأخرها مع حامل اللقب عامي ١٩٥٤م و١٩٦١م بطل جمانيزيم لوتابي دوفو (le tapis du

vent) [39] شارل دورلياك لتنتهي جميعها بفوزه وبالضربة القاضية ولاسيما أنه أذهل الجميع بابتكاره اللكمات اللولبية الخاطفة من الأسفل وأطلقوا عليها مصطلح إعصار الأوراس (l'hurrcain d'uras) نسبة إلى بلده، ولم تمضي سنة حتى نال بطولة أوروبا عام ١٩٧٠م على حساب منافسه الالماني لودفيج يوهانسن وبالرغم من خسارته في نزالين، أحدهما مع الإسباني الكاتالوني الأصل كارلوس خوينيث بالانسيا والآخر مع البولندي بيتركروسكي لكن ما لبث أن انتصر عليهما بعد شهر من لقائهما الأول، عندها فتحت أبواب الشهرة على مصراعيها له دون أن يرمي بثقله عليها بالكامل، أصبح حديث العامة والخاصة في أنحاء البلاد وتحسن وضعه المعيشي فحصل على بيت فخم غرب الشانزليزيه ودعي إلى أكثر من حفلة عشاء ولقاء ومؤتمر وأمسية للحضور لكن طبعه البيتوتي[40] كان يقف حائلًا أمامها وسرعان ما تقاطر عليه المعجبين من كلا الجنسين ولاسيما النساء اللائي سحرهن شكله الوسيم والجذاب وعيناه البراقتان ورشاقة جسده الأسطواني عندما يهتز وسط الحلبة بخفة الغزال مما أثار إعجاب زوجته أيضًا وأضحى مادة دسمة وغنية لدى وسائل الإعلام

---

[39] تعني بساط الريح باللغة الفرنسية.

[40] أي الشخص الذي يفضل البقاء في البيت دومًا ولا يحب الخروج.

الفرنسية بمختلف أنماطها تتلقف أخباره من حين إلى حين، فتصل شهرته إلى أوساط المؤسسات وتبلغ ذروتها إلى قصر الإليزيه حيث منحه رئيس الجمهورية وسام الاستحقاق الوطني من الدرجة الأولى عام ١٩٧٢م إثر انتصاره المذهل على منافسه المصنف الأول عالميًا بوزن الديك الأمريكي روبرت هستون بالضربة القاضية بعد مرور دقيقتين على بدء الجولة الأولى وتم منحه الجنسية الفرنسية مع الاحتفاظ بجنسيته الجزائرية أيضًا، لتتعدى شهرته حدود فرنسا إلى أنحاء العالم وبالأخص إلى الجزائر وأشقائها العرب والمسلمين إثر تربعه على عرش بطولة العالم للملاكمة في وزن الديك إثر فوزه الأسطوري والدراماتيكي على منافسه حامل اللقب السابق المكسيكي خافيير أورتيغا في لقائهما التاريخي بمدينة طنجة عام ١٩٧٦م فهو أصبح المصنف الأول بعد تغلبه على الياباني أكيرا كاوابااتا عام ١٩٧٤م والبريطاني مالكولم هوارد بطل أوروبا مرتين، أما الآخر فهو أعظم ملاكم أنجبته المكسيك منذ دخول هذه الرياضة إليها أواخر القرن التاسع عشر، فرغم بدايته الوضيعة والمشبوهة في إحدى حلبات الملاكمة السرية والغير شرعية بمسقط رأسه في فيراكروز ولم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره وتغلب في جميع نزالاته هناك وكان أحداها مع بطل آسيا السابق لوزن الديك الياباني ناكورو كاوساكي مما لفت نظر المدرب

المخضرم إميليو بانديراس والذي تدرب على يديه معظم أبطال المكسيك العالميين في الملاكمة ومن بعده المدرب جلال تيصفاوط، قد يغرك منظره الهادئ الوقور والصامت صمت الصخور الصماء في وادي ريو غراندي لكنه الهدوء الذي يسبق العاصفة، فسرعان ما تلمع عيناه الذئبيتان فيتحول إلى وحش كاسر بلمح البصر وبشكل مفاجئ ينقض بشراسة على فريسته انقضاض الأكلة على قصعتها وهي تحاول يائسة درء مخالبه السوداء عنها وتسعى لضربه وقتله دون جدوى فهو كالسهل الممتنع يتجنبها بشكل رصين ينم عن غرور زائد إلى درجة الكمال على أنه محصن من الهزيمة حيث لم يخسر أي نزال خلال مشواره الاحترافي، إلا أن علي تدارك الموقف وبعد أخذ ورد بينهما انتهى كل شيء في الجولة الخامسة لصالحه بالضربة القاضية، فالهب على اثر ذلك الحضور بالهتاف والتصفيق الحار بعدما أسر عقول وقلوب الملايين منهم ولا سيما المعجبين به من وراء ستار مهجره الاوروبي في أرجاء العالم العربي من المحيط إلى الخليج وصار حينها بطلًا قوميًا بالنسبة لهم، أما في وطنه الجزائر فاستقبلوه استقبال الأبطال ظلوا ثلاثة أيام بلياليها الملاح يقيمون الاحتفالات والأفراح ويرقصون احتفاء به حيث سمت الأمهات مواليدهن على اسمه في ذلك العام تيمنًا به، كما منحه رئيس الجمهورية وسام

الاستحقاق الوطني و.. وغيرها من الأحداث جعلته يمتلك بيديه نجوم الشهرة في سماء الملاكمة وأعظم ملاكم في العالم خلال عقد من الزمن.

لكن كل هذا لم يمر مرور الكرام دون ثمن أو ضريبة يدفعها لقاء ما أنجزه خلال مسيرته تلك لتفتح عينيه على الوجه الآخر من الملاكمة داخل أروقتها السرية تحت جنح غيوم الظلام الجامحة حيث يصبح الملاكم تحت وطأة الفقر والبطالة والاضطهاد الذي يتلقاه من المجتمع منذ صغره مجردًا من المشاعر مليئا بالحقد والضغينة فيتلقفه متعهد والحلبات سواءٌ المشبوهة منها أم القانونية، ففي الأولى يصبح موضع مراهنات تعقد بين المتعهدين الذين يجلبوهم من الأحياء الهامشية أو السجون أو الإصلاحات ويكتشفون مواهبهم المدفونة في ذلك المجال ومالكي الأندية الساعين إلى الحفاظ على سمعتهم الرياضية عبر استقطاب المزيد منهم إلى أنديتهم وتحسين وضعها المادي من اشتراكاتهم والدعم المقدم من الاتحادات والمجالس المحلية للملاكمة والذي بالكاد يسد الرمق ويتحصل اللاعبين فيها سواءٌ الفائزين كانوا أم المهزومين على ما نسبته ٥٪ فقط من أموال الرهان وما تبقى من نصيب الأسد للمتعهدين وأصحاب الحلبات السرية، لقد أدرك علي خطورتها الجسيمة على مستقبله الرياضي فلم يفكر بتجربتها بتاتًا وسلك طريق عالم الحلبات

القانونية وأن كانت لا تقل سوءا عن نظيرتها المشبوهة حيث يصبح الملاكم أداة ولعبة بيد المتعهدين والمجالس العالمية للملاكمة بكافة أوزانها سواءٌ داخل بلاده أم خارجها، حيث كلاهما يستغل مواهبهم ويستنفذون طاقاته وصحته لخدمة أغراضهم الخاصة، فالمجالس تفرض شروطًا قاسية ومجحفة لاختيار مقاييس الأوزان اتفقت غالبية أعضائها على ذلك مع العلم أن معظمها كانت رافضة لها لكن ضغط العضوين الأمريكي والبريطاني حسم الموضوع، فيجبر الملاكم للوصول إلى الوزن المطلوب على أن يصوم عن الأكل صيام الموت هذا إذا نجا بحياته ولاسيما أنه لا يأكل ولا يشرب طوال أسبوع وهيئة الفحص لا تلتزم بالمعايير، فأحيانًا عند القياس للوزن والطول لطرفي النزال لا يلتزمون عادة بالمقياس المنصوص عليه بلوائح المجلس العالمي للملاكمة فيكون الفارق حوالي ٥٠ كلغ و٣٠ سنتمترًا، أما في حال إذا بعض الملاكمين يريدوا التخلص من منافسيهم في بعض المباريات يستخدمون علاقتهم الشخصية بأعضاء المجالس الدولية ولجان فحص المعايير ويستبدلوهم بأخرين بالتواطؤ مع متعهدي الحلبات وهؤلاء بدورهم لا يقلون استغلالا عما ذكرناهم سابقًا، فهم يعقدون صفقات قبل وبعد المباراة بين طرفيها يضمن فوز أحدهما وحصول الخاسر على مبلغ من المال من قيمة الجائزة والذي يأخذ

المتعهد نصفها ويترك لها الفتات ويدفع ربع ما تحصله للمجلس العالمي للملاكمة، وكم من ملاكمين كثر وقعوا فريسة سهلة لهؤلاء دون أن يخبروا عالم الملاكمة الرسمية ويعرفوا قوانينها والذي كاد علي أن يصير مثلهم لولا وقوف أخيه ومدربه في نفس الوقت بشير وتوعيته بمحاذيرها وقوانينها وخطر من يتولاها لأضحى في خبر كان كما حدث للياباني ناسوهيرو كاجيموشا والذي اشتهر بلقب(بطل من الجحيم) لقوة إصراره أمام نظيره خافيير أورتيغا عندما التقيا على حلبة (باداتوكان) بطوكيو في ذلك اليوم المشئوم من ربيع ١٩٨٢م حيث يروي علي لعبلة تفاصيل تلك المباراة أو المذبحة كما وصفها لكثرة ما أريق فيها من دماءٍ غزيرة من قبل الطرفين تحت وقع لكماتهم النارية سعيًا وراء حزام مطاطي سميك يتوسطه دائرة نحاسية مكتوب عليها (المجلس العالمي لوزن الديك) وكان قد حضرها برفقة زوجته عائشة (إيزابيل سابقًا ولكن بعد إشهار إسلامها) دون ولدهما الذي بقي مع عمه بباريس مما لفت أنظار الجمهور وهم من اليابانيين وهم من أشد المعجبين به ولاسيما الفتيات اللائي احتشدن حوله عند قدومه إلى الحلبة قبل بدءا المباراة بعشر دقائق فهن مفتونات بوسامته ورشاقته ويعتبرونه أهم ملاكم في العالم بالنسبة لهم، ولفت نظر ناسوهيرو كاجيموشا أيضًا والذي لم ير صورته من قبل،

فيوشي كما يلقبه سكان حيه الفقير الواقع على ضفاف نهر كيوكوما بطوكيو تواق بشدة لمنازلته وانتزاع اللقب منه مصرحًا أكثر من مرة بذلك في وسائل الإعلام المحلية والدولية مما دفع علي إلى مشاهدته في هذه المباراة ومعرفة مستوى ذاك الشاب الحاد الطباع اللقيط مثله تمامًا منذ الطفولة بعدما قتل والداه الثريين المهاجرين من محافظة حضرموت اليمنية في أربعينيات القرن العشرين على يد إحدى العصابات المتواجدة في منطقته فينتقل من ملجأ إلى ملجأ ومن إصلاحية إلى إصلاحية عانى خلالها مرارة الاضطهاد والظلم هناك لتشق القسوة طريقها إلى قلبه بقوة دون أن يردعها شيء يذكر فتستقر في سويدائه إلى الأبد رغم تعرفه فيها على صديقه الوفي كنتارو كاجيموشا أهم ملاكم في اليابان خلال فترة الستينات بعد حصوله على بطولة اليابان لوزن الديك عام ١٩٦٢م ولكنه مات على يدي يوشي في إحدى المباريات التي جمعتهما في أوساكا عام ١٩٦٨م وانتهت لصالح الأول، وبعد خروجه من هناك تحول إلى شخص قاس وحاقد على المجتمع فقرر اختيار الملاكمة على يد مدربه كيمورا شانتو لتحقيق ذاته وأخذ حقه ممن ظلموه على مر حياته حتى حصوله على لقب المصنف الثامن بوزن الديك بعد فوزه على الماليزي حازم قهار عام ١٩٧٩م في طوكيو باليابان، ومع ذلك كان الثمن باهظًا

وعلى حساب جسده الضامر وقد سقط جثة هامدة وطواه الموت بعد انتهاء المباراة لصالح أورتيغا في الجولة ال ١٤ وتسقط معه أحلامه ورغباته، ساعتها نهض علي من مكانه وبدأ يخطو خطوات بطيئة نحو الحلبة وقد تجمدت عيناه من الصدمة وعندما حاول الحكم إيقافه فعاجله علي بلكمة على وجهه فسقط مغشيًا عليه وتحسس جسد المهزوم الراحل ثم تفقد المنتصر وقد أصبح حطامًا مهيلًا لا حول له ولا قوة، فحمله على كتفيه نحو مقعده وانتصب أمام الجمهور المحدق نحوه وهو يصرخ قائلًا:

(أهذا ما تريدونه؟ أن تنهشوا لحم هذان الرجلان من أجل تسليتكم وتحقيق رغباتكم الشخصية والتعصبية فقط؟! أتظنون أن الملاكمة حلبة مصارعة رومانية والملاكمين مجرد رقيق اشتريتموهم بأموالكم لينفذوا ما تريدون ومجرد لعبة تتقامرون عليها دون أن تحسوا بها يعانوه من ألم وظلم واضطهاد من الجميع؟! وماذا يهمكم أنتم؟! لم تجربوا أو تعايشوا حياتهم تلك ولا تبغون غير مصالحكم ورغباتكم من هذه اللعبة فقط والتي تقتطعونها من جسد الملاكم فلا يبقى له غير الفتات والعظام، يبدو أن

الفن النبيل[41] لم يعد نبيلًا كما كان من قبل منذ أن تجرد من مبادئه وقواعده وإنسانيته لحساب المال والشهرة وحسب دون مراعاة لمن يتساقطون ضحايا على بلاط مذبحه بلا رحمة، لذا قررت أن اعتزل هذا العالم حفاظًا على كرامتي كإنسان حر لا كماكينة لكمات تهريجيه توجه من قبل الأخرين لتسلية الجمهور ليس إلا)

ثم خيم الصمت والدهشة على الجمهور وأولهم زوجته مما سمعوه غير مصدقين لذلك، لكنه لم يبالي بهم وبإحساسهم الآني ذلك وهو يغادر الحلبة فما عاد يهمه أن يبقى في عالم يتاجر أصحابه بالعنف لمن يدفع أكثر ويرضى جمهور ظاهرهم طيبو القلب وأبرياء وباطنهم جلادون ومصاصو دماء.

****

[41] صفة تطلق على الملاكمة.

الفصل التاسع:
نهاية المطاف

ما إن سمعت عبلة كل ذلك ولاسيما العبارات الأخيرة أصيبت بالذهول والدهشة، ومن فرط ذلك انبرى في ذهنها سؤال مفاجئ باحت له:

(إذن، أنت اعتزلت الملاكمة ولم تختف عن أنظار الناس كما قلت؟)

(أولًا، الاختفاء كانت حيلة للفرار وعائلتي من براثن المتعهدين والمجلس العالمي للملاكمة بوزن الديك، فبعد أن عرفوا بخبر اعتزالي حتى بدأوا يسعون لتجريدي من كل أموالي وممتلكاتي التي جنيتها خلال مسيرتي الاحترافية في عالم الملاكمة وهذه من الأساليب التي يستخدمونها ضد الملاكمين إذا خالفوهم، فحسبت حسابي لذلك وحولتها جميعًا إلى البنك المركزي الجزائري استعدادا للرحيل إلى الجزائر قادمًا من طوكيو وثم لحق بنا بشير ومعه ابننا عماد (وكانت والدته قلقة جدًا من ألا يصل) إلى هناك وتم ذلك أواخر ١٩٨٢م، لكن ما إن وطأت قدمي أرض الوطن حتى صرت كالمستجير من الرمضاء بالنار)

(لماذا؟)

(لأن الوضع والمعاملة في بلدي تجاهي قد تغيرا عن ذي قبل، فلم يعد الناس يهتمون بي ويحتشدون حولي أو يحاصرونني بأسئلتهم وأوتوغرافاتهم[٤٢] بشغف كما في الماضي لذا لم يكن هناك داع للاختباء، ظننت في البداية أنهم لم يأخذوا انتباههم بقدومي، إلا إنه اكتشف أنهم يتعمدون ذلك لأنني باعتزالي خنت آمالهم العريضة ووطني الحبيب الذي لم يساهم في تكوين شهرتي الرياضية تلك بشيء يذكر عدا الجهود المبذولة من قبل مدربي السيد جلال وأخي المدرب بشير الذي كان نعم الأخ الوفي لي رغم كوننا لقيطان حيث وقف إلى جانبي في محنتي عندما حجزت الحكومة على رصيدي في البنك وكادوا أن يفعلوا الأمر ذاته مع بيتي هذا لولا طلبه مساعدة صديقي الشيخ فاضل الغيزاني حينها كان نائبا لمفتي الجمهورية آنذاك للتدخل لكنت وعائلتي على قارعة الطريق ولاسيما أنه الوحيد الذي تبقى من أصدقائي الذي بقي على قيد الحياة منذ لقائنا الأخير مجتمعين بغرفتي في فندق بوفاريك بالجزائر عام ١٩٧٨م، ثم إيجاده وظيفة لي كمدرس تربية رياضية في إحدى المدارس الثانوية بمنطقة بن عكنون لتأمين مصروف الجيب والإنفاق على دراسة ولدي عماد

[٤٢] كلمة فرنسية تعني الكتابات التذكارية أو التواقيع المهداة من قبل المشاهير الى جمهور المعجبين بهم.

الجامعية بعد دخوله كلية الهندسة كما أخرجني من حالة الاكتئاب الحاد والذي ساورني إثر وفاة زوجتي ليلحق بها عندما غيبه الموت في ديسمبر ١٩٩٥م وحيدًا بلا زوجة أو ولد بعد نذر نفسه من أجلي وأخوتنا حيث لم أنس أخر ما كان يتمتم به (لقد كنت يا علي بمثابة عائلتي الوحيدة وأحسستني بوجود الأب والأم والجد والزوجة والولد بعدما كدت أفقد الأمل لعلمي بأني لقيط فلا تدعني أرحل، أرجوك) لكني تركته يرحل دون أوقفه، تركته يرحل.. يرحل.. اهيء اهيء) لم يستطع حبس الدموع أكثر، فانفجرت وتدفقت من مآقيه تدفق سيل العرم على مأرب في العصور الغابرة تكشف عن حرقة وغصه ظلتا مشتعلتان في سويداء قلبه منذ سنين حاولت عبلة إطفائها بعبارات اعتذار متواضعة:

(أنا آسفة جدًا، لم أكن أقصد بحديثي هذا أن أنكأ فيك جراح الماضي..)

(لا داعي لذلك، فلم يعد يجدي الأسف بالنسبة لي، سواءٌ قبلت الاعتذار أم لا، وحتى إن اعتذرت للجميع أم لا فالأمر عندي سيان وراضٍ بوضعي هذا كل الرضا رغم سوئه)

(كل الرضا؟! كيف؟!)

(بأنني تعرضت لأسوأ الإهانات والمعاملات من قبل الناس سواءٌ في بلادي أم خارجها بسبب قراري الجريء والمفاجئ في آن واحد وكذلك

على خلفية بنوتي بالتبني للشيخ عبدالعزيز تيهاوي والتي تعتبره الدولة من أعداء الثورة بتعاونه مع المستعمرين الفرنسيين ضدها، مع العلم أن العديد من رجالها ومن بينهم الشيخ بوجاوي الحصين كانوا متواطئين معهم وبعد الاستقلال أفسدوا ونهبوا أرض الجزائر وشعبها ولتدخل دوامة العنف الأهلي الذي تفجر منذ ثلاث سنين مما يجعلني أشعر بالثقة والرضا بأني على حق وهم كاذبون يظهرون خلاف ما يبطنون بادعائهم الإخلاص للوطن فكم من ملاكم أراد رفع اسم بلادي منطلقًا منها ليقوم المجتمع بدفنه وآماله سريعًا أمام ناظريه وهو على قيد الحياة دون أي شعور بتأنيب الضمير، ويقولون أني خنتها بسبب اعتزالي الملاكمة وأنا في قمة نجاحي، من أعطاهم الحق في التحكم بمصيري هكذا وكأني لعبة بأيديهم كيفما يشاؤون كما فعل نظرائهم اليابانيين بيوشي المسكين أو الفرنسيين بي دون اعتبار لإنسانيتي قط؟)

(لكن هناك أناس يحبوك ويذكروك كولدك عماد وفضيلة المفتي الشيخ فاضل الغيزاني والأستاذ عمر الصباغ الذي أرسلني لمقابلتك اليوم..)

(عمر الصباغ؟! ها ها ها، عمر الصباغ؟! الآن صرت مهمًا بالنسبة له ذاك الأفاق المتزلف للسلطة دائمًا منذ تخرجه كصحفي وبوق لهم؟ أم يساير الوضع مجاملة للحكومة وكسب أصوات الناخبين؟!)

(أصوات الناخبين ومسايرة الوضع؟!)

(أجل، إن سعيه الحثيث من الاهتمام بي إعلاميًا نابع من تنفيذه الحرفي لتوجيهات الحكومة التي تريد استقطابي وغيري من مشاهير الجزائر إلى صفها في مواجهة المعارضة والمتمردين الإسلاميين أتباع جبهة الإنقاذ وبالمقابل يحصل على رضاها ودعمها في انتخابات رئاسة النقابة)

(الآن عرفت لماذا أصر عليّ مقابل منحي الوظيفة أن أجري لقاءً صحفيًا معك رغم أنه ليس ضمن اختصاص ي الصحافة الفنية، لم أكن أعرف أنه يستغلني ويستغل حاجتي الملحة للعمل من أجل ذلك)

(ومن أجل العمل تذلي نفسك بهذا الشكل؟ ومن أجل هذا الرجل الوضيع؟)

(أنا مضطرة لذلك، فأنا وأمي وأخي العاطل بلا عائل يصرف علينا، وراتب والدي بالكاد يسد الرمق، لذا كان عليّ أن أجاريه حتى يوظفني وإذا عارضته واجهت المشاكل والمتاعب..)

(وإذا نفذت أوامره واجهت المشاكل والمتاعب أيضًا، ففي كلا الحالتين الأمر سيان)

(إذن، ما الحل؟)

(لا أعرف)

(هناك حل يبدو غريبًا ومضحكًا، ما رأيك لو أتيت وعائلتك للعيش معنا ونعتاش من أموال أبي المودعة في البنك بعدما رفعت الحكومة الحظر عنه ولاسيما أن بيتنا هذا كبير جدًا ويسعنا جميعًا..)

(ما هذا الكلام السخيف يا عماد؟! عبلة أتت إلى هنا لتعمل وليس لتتسول، ثم ما شأن إسكان عائلتها عندنا بموضوعها؟)

(أنا آسف يا أبي، أحببت أن أساعدها فقط، لم أكن أعرف أنه سيتسبب في إهانتها، أنا آسف يا آنسة عبلة..)

(لا عليك يا عماد أنت أردت أن تسدي لي معروفًا وتساعدني لا أكثر، فشكرًا لك ولوالدك السيد علي على هذا اللقاء الشيق الذي ألقيت فيه الضوء على جوانب خفية علينا من شخصيتك الفريدة من نوعها، إلى اللقاء)

(عبلة)

(نعم سيد علي)

(تذكري يا ابنتي، لا تذلي نفسك لأي أحد من أجل غاية ما لأنك ستتعبين وتصبحين تحت سيطرته دون فكاك كما حدث لي من قبل ولاسيما إذا كانت هذه الغاية مجرد ترف لا ضرورة)

ظلت هذه الكلمات عالقة في ذهنها لا تفارق مخيلتها أثناء مغادرتها منزل السيد والبطل العالمي علي الغرناطي حاملة مع أوراق اللقاء الصحفي تساؤلات ومخاوف عديدة تنخر في جسدها الهزيل بلا توقف متشبثة بحقيبتها وهي شاردة الذهن لا تدري ماذا تفعل، أتسلم التحقيق الصحفي له أم لا؟ أتريدين الوظيفة أم لا؟! إلى أن انقشع كل هذا الغبار القهري من ذهنها الهلامي تحت وقع صوت رنين هاتفها الخليوي فتصحو من سهوها وترى رقمًا لم تره من قبل لتكتشف أنه الأستاذ عمر الصباغ رئيس التحرير يتحدث ويصرخ إليها بصوت غاضب وعال خرق طبلة أذنها وإحساسها:

(أين أنت بحق السماء؟ كل هذا الوقت تبحثين عن الملاكم علي الغرناطي؟ لقد أصبحنا نشارف على صلاة المغرب وأنت لم تجدينه إلى حد الآن؟ أهو إبرة في كومة قش؟! يا لك من عديمة الفائدة وتستحقين أن يقذف بك إلى سلة المهملات.. اسمعي، إما أن تقابلينه وتقدمي تقريرًا بذلك إلى مكتبي بأسرع وقت ممكن وإلا لن تحصلي على الوظيفة.. الو، الو، عبلة أتسمعينني؟ الو، هل أصابك الصمم..)

ظلت تمسك بالهاتف منصته لشتائمه وإهاناته المتعجرفة لها غير مباليةٍ له حتى انفرجت عيناها البراقتان انفراج الزاوية المنفرجة خلال تطبيقات

دروس الهندسة المملة في المدرسة قاذفة الى مسامعه كلمة مباغتة قطعت قول كل خطيب:

(فلتذهب ومن معك إلى الجحيم)

(ماذا قلت؟! أذهب إلى الجحيم؟! ويحك! كيف تجرئين على ذلك أيتها السافلة.. أنت مطرودة من العمل نهائيًا..)

(مطرودة؟! تطردني من العمل وأن لم أتوظف أساسًا عندك بعد؟! وهذا أدعى لأن أقولها مرة أخرى ولن أخجل من تكرارها على مسامعك، فلتذهب إلى الجحيم، إلى الجحيم، إلى الجحيم..)

ظلت تردد الكلمة ترديد الببغاء الضجر من كثرة بقائه المزمن حبيسًا داخل قفصه العاجي أكثر من مرة حتى انقطع الخط، فتوقفت عن اللهاث وبدأت تتنفس الصعداء وتنفرج أساريرها محدقة إلى السماء وقد تدثرت بشفق أحمر شفاف صاف صفاء عقلها البريء من جل الهموم العالقة في ثناياه من تلك اللحظة وبعد تخلصها من قيد ظل يخنق أوداجها[٤٣] لفترة طويلة من الزمن وهو الخضوع لرغبات الناس وأغراضهم التافهة من أجل العيش والرزق حتى ولو كان على حساب حريتها وإنسانيتها لترمي

[٤٣] شرايين العنق

بكل ما سبق عرض الحائط وإلى غير رجعة تعبر الشوارع في نشوة طاغية لا توصف، منتشية انتشاء فارس مغوار عاد ظافرًا لتوه من أرض المعركة مكللًا بإكليل الغار.

لم يستطع عماد النوم بتاتًا وهو يتذكر ما جرى البارحة من مفارقات وأشياءٍ تكشفت له عن حياة أبيه الغامضة لا تصدق وقد تضر بسمعته كملاكم مشهور وإن لم يعد يهمه ذلك، ولكن ما أرقه وأذهب النوم من عينيه النجلاوين حتى انبلاج نهار اليوم التالي هي عبلة والتي لم تفارق خياله بتاتًا منذ أن أدخلها إلى منزله ولملم جراحها جراء معاملة أبيه القاسية لها قبل أن يقنعه برواية قصة حياته كما رغبت بعينيها الزرقاوين وأنفها المدبب وشعرها الأصهب الطويل رغم ما بينهما من فوارق، فهو مهندس صغير بمطبعة صغيرة بحي بلكور الشعبي ويبعد عن منزلهم مسافة ثمانية كيلومترات، أما هي فصحفية متخرجة حديثًا من كلية الصحافة جامعة الجزائر وتحاول عبثًا إثبات ذاتها في غمرة هذه الظروف الصعبة التي تمر بها البلاد، إضافة إلى أنها تكبره بثلاث سنين، ظل يسند رأسه براحته[٤٤] اليسرى مجاورًا لنافورة المنزل شاردًا في هواها ليراه أبوه

---

[٤٤] كفه.

بهذا المنظر مستغربًا من ذلك فيحاول إيقاظه قبل أن يفاجأ بطرق شديد على الباب منذ الصباح الباكر ويطلب من عماد فتحه ليعرف من الطارق في هذا الوقت فإذا بها عبلة تدخل ومعها أمها وأخيها الأكبر إليهم ما أثار استغراب علي مستفسرًا عن السبب، فتبدده نوال برد غريب ومفاجئ(لقد أخبرت أمي وأخي باقتراحك يا عماد وبكل شيء عنك ووالدك السيد علي الغرناطي، فأخي معجب به وببطولاته وصولاته وجولاته المكوكية في عالم الملاكمة، وقد وافق كلاهما أن نسكن معكم ونبقى معكم إلى الأبد)

(ماذا تعنين بكلمة إلى الأبد؟)

(المقصود منه يا سيد علي أن يصبح ولدك السيد عماد صهرنا وزوجًا لابنتي الغالية)

(حقًا يا عبلة؟! تـ تـ تريدينني زوجًا لكِ؟!)

(إذا أحببت!)

(إذا أحببت؟! بل قولي أريد ذلك.. لمَ تخجلين من البوح بها؟! قوليها! أنا أنا موافق.. أبي؛ أرجوك وافق يا أبي، أرجوك!)

(تمهل يا بني! تمهل حتى أستوعب ما يجري أمامي من أمور لا يقبلها العقل والمنطق)

(أفهم من كلامك يا أبي أنك لا تريدهم أن يبقوا معنا؟)

(وهل أكره ألا يقيموا معنا وتعيش أنت وعبلة في بيت واحد؟ بلى، أريد ذلك، عله يبدد كآبة الوحدة والحزن في أرجاء بيتنا بعد وفاة أمك وعمك، لذا أنا موافق وبالثلث)

ما إن سمع عماد ذلك حتى طار من الفرح وانطلق انطلاقة طفل نشوان نحو حبيبته عبلة يمسكها من يديها ويرقصان طربًا وسرورًا أمام الجميع يحتضنان بين جوانحهما نور الصباح الدافئ ويمتلكان بعينيهما المصوبتين إلى كبد السماء الصافية ونجومه الخافتة دون خوف من أحد ينغص فرحتهم وآمالهم ما داموا أحرارًا لا يخضعون لهم ولا لأهوائهم إلى الأبد.

(النـــهايــــة)

****

غلاف خلفي